

كلية دار علوم بالمنيا
قسم التاريخ الإسلامى

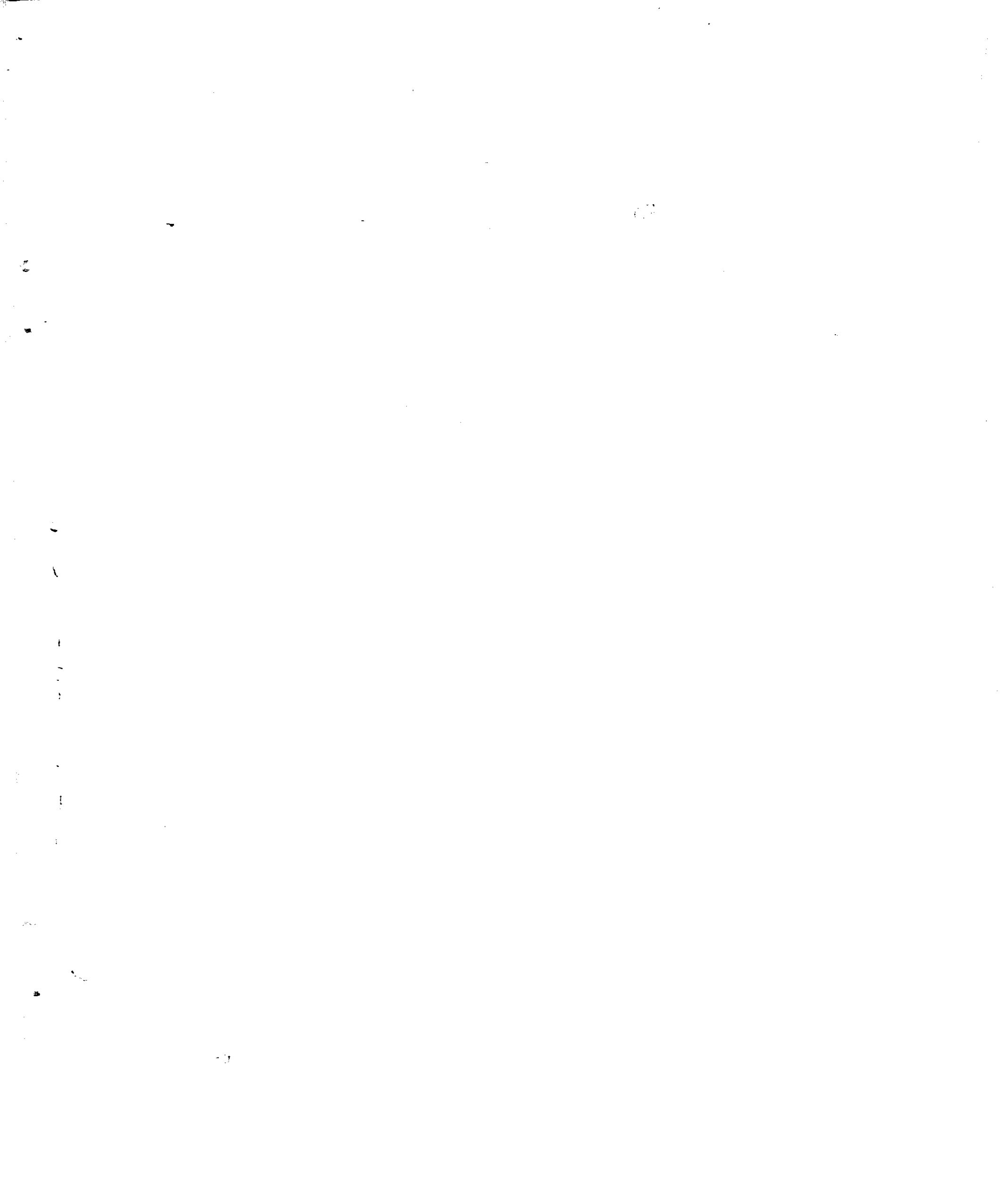
دراسات
فى
تاريخ العرب قبل الإسلام
و
السيرة النبوية العطرة

إعداد

الدكتور / أحمد تونى عبد اللطيف

أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد

١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م



المحتوى

مقدمة

تعالج هذه الصفحات المتواضعة موضوعين مهمين : الأول هو : تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام ، والثاني : سيرة الرسول ﷺ العطرة .

وقد ألمحت في الموضوع الأول إلي أقسام الجزيرة العربية الجغرافية ، وإلي أقسامها الطبيعية ، بعد ذلك تكلمت عن العرب وأقسامهم (العرب البائدة ، والعرب الباقية) ، انتقلت بعد ذلك إلي الحديث عن أهمّ القوى السياسية التي عاشت بالجزيرة العربية وكان لها تأثيرها السياسي والاجتماعي والاقتصادي .

كالأنباط وتدمر والغساسنه والمناذرة في الشمال ، ومعين وسبأ وحمير في الجنوب ، ومكة والطائف في الوسط .

أما الموضوع الثاني فقد ألمحت فيه إلي الحديث عن السيرة النبوية العطرة ، بادئا إياها بمولد الرسول ﷺ، ثم رضاعته وكفالته وشبابه وزواجه من السيدة خديجه بنت خويلد رضي الله عنها.

بعد ذلك بداية البعثة النبوية ونزول الوحي وبداية الدعوة الإسلامية في سريتها وجهرها ، وما عاناه الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم من عناد المشركين في سبيلها .

عرجت بعد ذلك إلي الحديث عن الهجرة الأولي والثانية إلي الحبشة ، ثم الهجرة إلي الطائف وبيعتا العقبة الأولي والثانية ، ثم الهجرة إلي المدينة وتكوين الدولة الإسلامية .

تلوت ذلك بالحديث عن غزوات الرسول ﷺ، بادئا أباها بالسرايا والغزوات المتعددة حتى كانت غزوة بدر الكبرى ومن بعدها غزوة أحد ثم غزوة الخندق حتى وصلنا إلي فتح مكة ونهيت ذلك بحجة الوداع .

وقد اعتمدت في ذلك علي القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، والمصادر التاريخية المهمة وكذلك المراجع قدر الجهد والطاقة ، فإن أصبت فهو بتوفيق الله عز وجل، وإن أخطأت فمن نفسي وما الكمال إلا لله

والله أسأل التوفيق والرشاد

د . أحمد توني

القسم الأول

تاريخ العرب قبل الإسلام

بلاد العرب قبل الإسلام

التحديد الجغرافي لمناطق تاريخ العرب قبل الإسلام :

تلقى هذه الدراسة ضوءاً يسيراً على جغرافية بلاد العرب من حيث: التسمية ، والأقسام الجغرافية ، والمناخ ، وكذلك السكان ، حتى يمكن لنا تكوين فكرة سريعة عن التحديد الجغرافى لمناطق تاريخ العرب قبل الإسلام ، ولتوضيح ذلك نقول :

١ - طبيعة بلاد العرب :

عرفت بلاد العرب عند مؤرخى اليونان والرومان باسم Arabia بينما عرفت عند مؤرخى العرب وجغرافييهم باسم جزيرة العرب ، وهى بالطبع تسمية مجازية ، لأن بلاد العرب ليست جزيرة وإنما شبه جزيرة ، ولكن العرب كانوا يسمون شبه الجزيرة "جزيرة " إذ أطلقوا على شبه جزيرة أيبيريا جزيرة الأندلس، وسموا ما بين النهرين فى العراق بجزيرة أقور ، وكذلك سموا بلاد العرب بجزيرة العرب ؛ وذلك لأن البحار والأنهار تحيط بأقطارها وأطرافها ، فالبحر الأحمر من الغرب ، والخليج العربى من الشرق ، والبحر العربى من الجنوب .

ويرى البعض أن وجود نهرى دجلة والفرات فى الشمال هو السبب الذى دفع المؤرخين والجغرافيين على تسمية شبه جزيرة العرب بجزيرة العرب ، إذ أكمل النهران الدائرة المائية .

وقد ذكر ابن خلدون : أن جزيرة العرب بين بحر فارس والقلزم وكأنها داخلة من البر فى البحر يحيط بها البحر الحبشى من الجنوب ، وبحر القلزم من الغرب ، وبحر فارس من الشرق .

ويقول أبو الحسن الندوى " ليس بين أشباه الجزر شبه جزيرة تنيف على شبه جزيرة العرب فى المساحة فهى أكبر شبه جزيرة فى العالم " . (السيرة النبوية ص٦٣)

ومما تجدر الإشارة إليه أن بلاد العرب اختلفت من حيث طبيعتها باختلاف أجزائها ، فالقسم الأكبر منها ، بادية تتخللها واحات وأغوار تتجمع فيها مياه الأمطار أو تتسرب فى الأرض ، أما الوديان فقليلة وتقع فى أطراف شبه الجزيرة .

وبالطبع كان ذلك الاختلاف الواضح فى طبيعة بلاد العرب الجغرافية سبباً فى وجود نوعين من السكان :

البدو : ويعرفون أيضاً باسم الأعراب ، ويسكنون البادية .

والحضر : ويسكنون المدن ، ويعملون بالزراعة أو التجارة أو الصناعة ، وهم أهل المدر أو أهل الحجر أى سكان المدن .

وقد قسم اليونان والرومان بلاد العرب إلى ثلاثة أقسام طبيعية تتفق مع الناحية السياسية التى كانت عليها بلاد العرب فى القرن الأول الميلادى .

أولها : بلاد العرب الصخرية Arabia Petraea أو Arabia Petrix وتقع فى الشمال من بلاد العرب جنوب غربى بادية الشام حيث مملكة الأنباط .

ثانياً : بلاد العرب السعيدة Arabia Felix ، والمقصود بها بلاد اليمن أو الأرض الخضراء .

ثالثاً : بلاد العرب الصحراوية Arabia Deseria ، وكانت تطلق على بادية الشام ، ثم شمل اسمها البادية الواسعة والمناطق الصحراوية التى كانت تسكنها القبائل المتبدية فى شبه جزيرة العرب كلها .

وفي الواقع أن بلاد العرب الصحراوية تمثل القسم الأعظم من هذه الأقسام الثلاثة لكثرة صحراواتها في الوسط والشمال والجنوب ، وتتنوع وتختلف بالطبع من موضع لآخر وتنقسم إلى ثلاثة أقسام .

١-الحرات أو الحرار :

الحرة على حد تعبير صاحب كتاب " العين " أرض ذات حجارة سود كأنها أحرقت بالنار ، والحرة عادة مستديرة الشكل ، فإذا كان فيها شيئ من الاستطالة غير واسع فذلك " الكراع واللابة " .

والحرات كثيرة في بلاد العرب ، وتبتدئ من شرقي حوران ، وتمتد متناثرة إلى المدينة المنورة ، وقد أحصى ياقوت الحموي منها تسعاً وعشرين حرة نذكر منها ؛ حرة أو طاس ، وحرة تبوك ، وحرة تقدة ، وحرة حقل ، وحرة الحمارة ، وهي حرات ذكرت في أيام العرب .

ومنها أيضاً حرة راجل ، وتقع بين السر ومشارف حوران ، وحرة " رماح " بالدهناء ، وحرة " ضرغد " في جبال طيئ .

ولعل أشهر حرات العرب حرة النار قرب خيبر، وقيل بين وادي القرى ، وتيماء بالقرب من حرة ليلى التي يطؤها الحاج في طريقه إلى المدينة .

والمدينة نفسها تقع بين حرتين هما : حرة واقم أو الحرة الشرقية ، وحرة الوبرة أو الحرة الغربية ، ولذلك يقال عن المدينة كلها " ما بين اللابتين " . وقد سميت حرة واقم بهذا الاسم نسبة إلى أطم من آطام المدينة ، وكانت وقت الهجرة النبوية أكثر عمراناً من حرة الوبرة ، إذ سكنتها قبائل اليهود من بني النضير ، وبني قريظة ، وعشائر أخرى يهودية ، كما كانت تسكنها أهم بطون الأوس وهم

بنو عبد الأشهل ، وبنو ظفر ، وبنو حارثة، وبنو معاوية. وأصبحت هذه الحرة منذ أن قامت دولة الرسول ﷺ فى المدينة دار حرب عندما حاصر النبى ﷺ يهود بنى النضير حتى أجلاهم ، ثم يهود بنى قريظة حتى قضى عليهم . وفيها كانت وقعة الحرة المشهورة أيام " يزيد بن معاوية " فى ٢٧ من ذى الحجة عام ٦٣هـ.

أما حرة الوبرة فتقع على بعد ثلاثة أميال غربى المدينة ، فى أول الطريق إلى مكة ، وتفصل هذه الحرة بين المدينة ووادى العقيق ، وكان وادياً خصباً كثير المياه والآبار والعيون ، كثير الشجر والنخيل والغروس ، ومن بين آباره ؛ بئر عروة ، المنسوب إلى عروة بن الزبير ، وبئر رومة .

٢- الدهناء أو صحراء الجنوب :

تشغل هذه الصحراء مساحة كبيرة من شبه جزيرة العرب ، فهى تمتد من صحراء النفوذ المسماة قديماً (بادية السماوة) شمالاً إلى حضرموت فى الجنوب ، ومن اليمن غرباً إلى عمان شرقاً ، وتقدر مساحتها بخمسين ألف ميل مربع ، وتخترقها تلال رملية أو كثبان تتموج مع الرياح وتنتقل معها عند الهبوب ، وتعرف الأجزاء الجنوبية منها فى الوقت الحاضر باسم (الربع الخالى) ، وكانت تعرف قديماً بمفازة صيهد . (راجع ياقوت الحموى ، معجم البلدان مادة صيهد)

أما القسم الغربى من الدهناء ويطلق عليه اسم الأحقاف وأرض الدهناء على الرغم من جفافها وخلوها من الماء كانت إذا سقطت عليها الأمطار الموسمية نبتت فيها الأعشاب مدة ثلاثة أشهر ، ولعل الدهناء سميت بذلك الاسم لاختلاف النبت والأزهار فى عراضها ، لأن الدهان يعنى الأبيم الأحمر . (ياقوت : نفس المصدر ، مادة دهناء)

٣- صحراء النفوذ :

كانت تسمى قديماً " بادية السماوة " أو رملة عالج ، وتقع في شمال الجزيرة العربية ، وتمتاز بكثبانها الرملية الناعمة اللينة التى يصعب على المرء أن يسير فيها ، إذ يبلغ ارتفاع بعض هذه الكثبان نحو ١٥٠ متراً ، وتمتد صحراء النفوذ على مساحة كبيرة من الأرض فيبلغ طولها من واحة تيماء إلى الشرق نحو ٤٥٠ كم ، وعرضها من واحة " الجوف " إلى جبل شمر بنجد إلى ٢٥٠ كم . (راجع / جواد على ، العرب قبل الإسلام جـ١ ص٩٣)

وبعد إلقاء هذه النظرة اليسيرة على صحراوات الجزيرة العربية ننتقل الآن لنوضح أبرز الأقسام الجغرافية لها .

الأقسام الجغرافية للجزيرة العربية :

أجمع الجغرافيون على تقسيم الجزيرة العربية إلى خمسة أقسام طبيعية وهى : تهامة — الحجاز — نجد — العُروض — اليمن .

١ - تهامة :

تشمل تهامة المنطقة الساحلية الضيقة الموازية لامتداد البحر الأحمر من اليمن جنوباً إلى العقبة شمالاً ، ويحجزها عن داخل شبه الجزيرة سلسلة جبال السراه ، أعظم جبال العرب ، وقد سميت تهامة بذلك الاسم من التهم ، وهو شدة الحر وركود الريح ، وقيل " سميت " كذلك لتغير هوائها ، وقيل إن التهمة هى الأرض المنصوبة نحو البحر ولإنخفاض أرض تهامة سميت بالغور .

ويتألف إقليم تهامة من عدة تهائم ، منها ما يدخل فى اليمن ، ومنها ما يدخل فى الحجاز ، وتمتد تهامة شمالاً حتى حدود مكة ، وجنوباً حتى حدود

صنعاء ، وتهامة اليمن سهل خصب تنحدر إليه الأودية من الجبال وتكثر فيه الأشجار والزروع .

ومن أبرز المدن الساحلية لتهامة : الحديدة ، ومخا ، وقنفذة . ومن تهامة أيضاً " ينبع " وهى مدينة صغيرة على مقربة من البحر ، كانت منزلاً لبنى الحسن بن على بن أبى طالب رضي الله عنه ، ومنها أيضاً جدة فرضة مكة ، وكانت عامرة بالتجارة ، ومن تهامة كذلك الحديبية وتبوك وهى واحة بين الحجر وبين أول الشام .

٢ - الحجاز :

مما يلى تهامة شرقاً بين نجد وتهامة ، وهى جبال تمتد من اليمن حتى الشام ، وسمى الحجاز بذلك الاسم لأنه يحجز بين نجد وتهامة، على رواية " هشام ابن الكلبى "، وهى سلسلة جبال السراه الشهيرة التى تتخللها بعض الأودية ويضم الحجاز مدناً أبرزها مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، والطائف ، وخيبر وفدك ، والجار فرضة المدينة وتيماء .

٣ - نجد :

نجد هى الهضبة الوسطى فى شبه الجزيرة العربية ، وتقع بين بادية السماوة فى الشمال والدهناء فى الجنوب ، وأطراف العراق شرقاً والحجاز غرباً، وهى أوسع أقاليم جزيرة العرب، وتتخللها أودية كثيرة منها وادى الرمة وروافده، ووادى حنيفة ، ووادى عاقل ، ولذلك كانت نجد أطيب أراضى الجزيرة العربية ، ومن هنا ترنم الشعراء برياضها ورباها .

وقسمها العرب قسمين: نجد السفلى ونجد العليا ، فالسفلى ما ولى العراق، والعليا ما ولى الحجاز وتهامة ، وبنجد جبلان مشهوران صعبى الارتقاء هما جبلا (أجأ وسلمى) المنسوبان إلي طئ ، وفيهما يقول زيد بن مهلهل الطائى :

جَلَبْنَا الخَيْلَ مِن أجإٍ وسَلْمَى

تَخُبُ نَزَائعاً خَبَبَ الرِكَابِ

ويصف لبيد كتيبة النعمان فيقول :

كأركان سلمى إذ بدت أو كأنها

ذُرى أجأ إذ لاح فيه مواسلُ

وبأدنى جبل أجأ مدينة حائل ، وعلى سفح جبل سلمى بليدة فيد ، الواقعة فى طريق الحاج العراقى .

٤- العُروض :

تشمل اليمامة والبحرين وما والاهما ، وقد سميت بهذا الاسم لأنها تعترض بين اليمن ونجد والعراق ، وكانت اليمامة تسمى قديماً جوا ، وذلك عندما نزلتها طسم وجديس ، فعرفت باليمامة نسبة إلى اليمامة بنت سهم ابن طسم . وقاعدة اليمامة فى القديم كانت مدينة حجر .

أما البحرين فإقليم فسيح قريب من الخليج العربى، وكانت قاعدتها " هجر" وقصبة هجر الإحساء .

٥- اليمن :

اليمن منطقة واسعة تمتد حدودها من تهامة إلى العروض ، وسميت بذلك الاسم لتيامن العرب إليها ، لأنها أيمن الأرض ، والأرجح أنها سميت اليمن من يمنات الواردة فى نص يرجع إلى أيام الملك شمر يهرعش ، ولعل يمنات من

اليمن والخير ، لما أودع الله فيها من البركة ، ولذلك عرفت عند العرب بالخضراء لكثرة مزارعها ونخيلها ، وأشجارها وثمارها ، كما عرفت عند اليونان ببلاد العرب السعيدة ، وفى خيرات اليمن يقول الكلاعى :

هى الخضراء فاسأل عن رباها
يخبرك اليقين المخبرونـا
ويمطرها المهيمن فى زمـان
به كل البرية يظمؤونـا
وفى أجبالها عز عزيـز
يظل له الورى متقاصرينا
وأشـجار منـورة وزرع
وفاكهة تروق الآكلينـا

ولقد أشار القرآن الكريم إلى ما كانت عليه بلاد اليمن من حضارة وعمران ، فيقول جل شأنه " بسم الله الرحمن الرحيم : **لقد كان لسبأ فى مسكنهم أيةٌ جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدةٌ طيبةٌ وربٌ غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثلٍ وشيىء من سدر قليل** " .

صدق الله العظيم(١)

والآيات البينات توضح أنه لما لم يمتثلوا لقول الحق جل وعلا ، وأعرضوا عن ذكر الله ، أرسل الله عليهم سيل العرم ، وبدل جناتهم الطيبة الثمر

---

(١) سورة سبأ : الآيتين ١٥ ، ١٦ .

بجنتين ذواتى أكل خمط أى ثمر مر حامض بشع ، وبعض أشجار النبق جــزاءاً لموقفهم .

المناخ :

وحتى تكتمل هذه النبذة الجغرافية تحين منا التفاته إلى المنــاخ ، ومــن المعروف أن الجفاف يسود شبه جزيرة العرب بوجه عام ، والمطر يندر سقوطه، ولذلك فإن أكثر أراضى بلاد العرب صحراوية ، بيد أن هناك أودية كثيرة تسـيل بها المياه فى مواسم الأمطار ، وهى أودية شديدة الانحدار ، تصب فــى البحــر الأحمر أو بحر العرب ، والأمطار تسقط فى الخريف والشتاء شمالاً ، بينما تسقط على بلاد اليمن صيفاً .

وقد ذكر المسعودى أن الرياح أربعة ، القبول وتــهب مــن المشــرق ، والدبور وتهب من المغرب ، والتيمن وتهب من الجنوب ، والتيسر وتــهب مــن الشمال .

التطور التاريخى لمفهوم كلمة عرب :

وردت لفظة " عرب " بكثرة فى الوثائق الأشورية والبابلية منــذ القــرن الثامن قبل الميلاد فى صيغ متعددة منها Aribi, Urbi, Arbi بمعنــى الباديــة الواقعة إلى الغرب من بلاد الرافدين وهى بادية العــراق ، ثــم ظــهرت لفظــة " Arbaya " فيما يقرب من عام ٥٣٠ ق.م لأول مرة فى النصــوص الفارســية المكتوبة بالأكمينية بمعنى البادية الفاصلة بين العراق والشام بما فيها شبه جزيــرة سيناء . كذلك وردت اللفظة فى الأسفار القديمة من التوراه بمعنى البدو ، فى حين كان السكان الحضر يسمون بأسماء قبائلهم أو بأسماء المواضع التى ينزلون فيها .

ثم أخذ اليونان يذكرون لفظة عرب فى أواخر القرن الخامس ق.م ، فذكرها اسخيلوس عام ٤٥٦ ق.م عند الإشارة إلى قائد عربى كان معروفاً فى جيش أحشويرش ، ثم ذكرها هيرودوت فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ، وقصد بها سكان شبه جزيرة العرب كلها بما فى ذلك صحراء مصر الشرقية بين النيل والبحر الأحمر . وأصبح هذا اللفظ مألوفاً بعد ذلك عند جميع كتاب اليونان .

ولم يرد هذا اللفظ فى المصادر العربية الأثرية إلا متأخراً ، فقد جاء فى النقوش السبئية المتأخرة التى لا يرجع تاريخها إلى أبعد من القرن الأول قبل الميلاد ، ولكنها وردت فى هذه النقوش بمعنى الأعراب ، فى حين كان أهل المدن يعرفون بمدنهم أو بقبائلهم ، كذلك ورد اللفظ فى نقش النمارة المكتوب بالآرامية النبطية فى ٣٣٠ ق.م بمعنى الأعراب الذين يسكنون البادية .

ولا نعرف على وجه الدقة متى استعمل لفظ " عرب " للدلالة على معنى قومى يتعلق بالجنس العربى ، والقرآن الكريم هو أول مصدر ورد فيه لفظ العرب للتعبير بوضوح عن هذا المعنى ، مما يدل على وجود كيان قومى خاص يشير إليه هذا اللفظ قبل نزول القرآن الكريم ، فليس من المنطقى أن يخاطب القرآن الكريم قوماً بهذا المعنى إلا إذا كان لهم سابق علم به .

والشعر الجاهلى الذى وصل إلينا يخلو من وجود صيغة " عرب " للتعبير عن هذا المعنى القومى للجنس العربى ، وذلك لاستغراق عرب الجاهلية فى المنازعات الداخلية والحروب ، فلما وقف العرب قبل نهاية العصر الجاهلى أمام الفرس بدءوا يستشعرون من الكراهية للفرس ، ويعبر " عنترة " عن تلك الكراهية بقوله :

شَرِبَتْ بماء الدحرضين فَأَصْبَحَتْ

زوراء تنفر عن حياض الديلم

والدحرضين ماءان هما دحرض ووسيع ، ويقصد عنترة بالديلم الأعداء (الفرس) .

ومن الثابت أن القرآن الكريم هو أقدم مصدر عربى ، ووردت فيه لفظة " أعراب " عشر مرات ، كما وردت لفظة عربى أحد عشرة مرة نعتاً للغة التى نزل بها القرآن بأنها لغة واضحة بينة . قال تعالى : " **إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون** " . سورة الزخرف آية ٣ .

ثم استخدمت مرة واحدة لتنعت شخص الرسولﷺ فى قوله تعالى : " **ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته ، أأعجمى وعربى قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك يناودون من مكان بعيد** " . سورة فصلت آية ٤٤ .

أما فى الشعر فقد هَدى استعمال لفظة " العرب " فى القرآن الكريم السبيل أمام الشعراء منذ الهجرة للتعبير الذى لم يتوصل إليه عنترة ، فكعب بن مالك يقول مذكراً بالرسول ﷺ .

بدا لنا فاتبعناه نُصدقُه

وكذبوه فكنا أسعدَ العرب

ولاشك أن الإسلام كان له الفضل فى بعث روح القومية عند العرب ، فقد أخذ العرب منذ ظهور الإسلام وقيام الدولة العربية الإسلامية يتباهون بجنسهم العربى ، ويتمثل ذلك فى بيت ليربوع بن مالك فى زمن الفتوحات .

إذا العَرَبُ العرَباءُ جَاشَتْ بحورُها

فَخَرْنَا على كل البحور الزواخر

وقد عُرف العرب أيضاً عند الكتاب اليونان ، وحتى الأوربيين فى العصر الحاضر باسم Saracens ، ويفسر " المسعودى " أصل هذه التسمية بقوله " وأنكر نقفور ملك الروم على الروم تسميتهم العرب " ساراقينوس " بمعنى عبيد سارة ، خوفاً منهم على السيدة هاجر وولدها إسماعيل ، والروم إلى هذا الوقت على رواية المسعودى تسمى العرب ساراقينوس . التنبيه والإشراف ص١٦٨ .

وقد جانب الصواب تفسير المسعودى بينما بطليموس فى جغرافيته يوضح معنى كلمة السركنوا Sarakenoi ، فيقول إن هذه التسمية تطلق على منطقة تقع إلى جنوب إقليم " الثاديتاى " Theditai ، أو الإقليم الذى تنزل فيه قبيلة " طيئ " بين منطقة الشراه ، وصحراء النفوذ. وعلى هذا الأساس يصبح إقليم " السركنوا " واقعاً فى النصف الشمالى الغربى من الإقليم الذى يعرف فى الوقت الحاضر باسم " شمر " . ويحدد بطليموس منطقة الثموديتاى Thqmyditai التى كان يسكنها شعب ثمود ، ومركزهم منطقة " حسمى " غربى " السركنوا " ، وعلى هذا النحو يصبح مدلول " السركنوا " الإقليم الذى يقع إلى الشرق من ثمود ، وكان يطلق على جميع البدو من العرب الذين يسكنون شرقى مملكة الأنباط فى البادية العربية .

طبقات العرب

يكاد يتفق الرواة والإخباريون على أن العرب ينقسمون إلى ثلاث طبقات.

١-العرب البائدة .

٢-العرب العاربة .

٣-العرب المستعربة .

ويطلق على الطبقتين الثانية والثالثة اسم العرب الباقية ، أما العرب البائدة فيقصد بها تلك الشعوب العربية القديمة التى كانت تعيش فى جزيرة العرب ، ثم اندثرت وبادت إما بفعل الرمال الزاحفة التى طغت على العمران القديم فى أواسط شبه الجزيرة العربية ، وفى الأحقاف ، أو بفعل عوامل أخرى من عوامل الطبيعة والتى أتت على المدن فانتهت تلك الشعوب .

أما العرب العاربة ، فيذكر أنهم الراسخون فى العربية وأول أجيالها ، وينتسبون إلى قحطان أو يقطان أو يقطن كما ورد فى التوراة ، وهو " قحطان بن عابر بن شالخ بن ارفخشذ ابن سام بن نوح عليه السلام " وكان موطنه اليمن .

وأما العرب المستعربة أو المتعربة فينسبون إلى " عدنان بن أدد من ولد نابت بن الهميسع بن تيمن بن نبت بن قيدر ابن إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام فهم بنو إسماعيل بن إبراهيم أو المعديون من ولد معد بن عدنان ، وقد سموا بالعرب المستعربة فيما ذكر ؛ لأن إسماعيل عليه السلام عندما نزل مكة كان يتكلم العبرانية ، فلما صاهر اليمنية عرف العربية ، ولاشك أن هذا الانقسام أو التقسيم بين العرب مصدره راجع إلى التوراة فى سفر التكوين ، ومنه أخذ بالطبع كتاب البدء أى

الذين اعتنوا فى أخبارهم ببدأ الخلق مثل : وهب بن منبه ، وكعب الأحبار ، وعبد الله ابن سلام ، وهم من أهل الكتاب .

بيد أن القرآن الكريم لم يفرق بين عرب قحطانية وأخرى عدنانية ، وما جاء فيه فى هذا الشأن يشير إلى أن العرب يرتفعون إلى جد واحد هو إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام ، وأن إبراهيم عليه السلام هو أبو العرب .

كذلك لم يرد فى الشعر الجاهلى ذكر لتقسيم العرب إلى قحطانية وعدنانية وكل ما ورد فيه لا يعدو أبياتاً قيلت فى التفاخر بين قحطان وعدنان ، يضاف إلى ذلك أن علماء الأنثروبولوجيا (علم دراسة الإنسان) لم يلاحظوا وجود فوارق جسمية بين العدنانية والقحطانية .

وإلى جانب هذا لم يظهر أى انقسام بين العرب فى حياة النبى ﷺ ، وأيضاً لم يظهر هذا الانقسام لا فى خلافة أبى بكر الصديق رضي الله عنه ، ولا فى خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، كذلك لم يرد فى الروايات الخاصة بتنظيم عمر بن الخطاب لديوان العطايا (العطاء) ما يشير إلى انقسام أو تمييز بين القحطانية والعدنانية ، كذلك لا نشهد مثل هذا التقسيم فى توزيع الجيوش العربية فى زمن الفتوحات ، ولا حتى فى أيام الحرب بين على بن أبى طالب رضي الله عنه وخصومه .

وقد يستند دعاة الانقسام إلى عدنانية وقحطانية على حقيقة هامة هى تأصل العداء بين الجماعتين فى الجاهلية والإسلام ، ويرد الدكتور "جواد على" على هؤلاء بأنه إذا كان النزاع بين القبائل المعدية أو العدنانية والقبائل القحطانية مستحكماً فى الجاهلية فقد كان هناك عداء بين القحطانيين بعضهم بعضاً ، وبين العدنانيين بعضهم بعضاً ، ثم يضيف الدكتور "جواد على" قائلاً : " وكيف يجوز

لنا أن نتصور انقسام العرب إلى قسمين : قحطانيين وعدنانيين " انقساماً حقيقياً ، وقد كانت القبائل تتحالف فيما بينها وتتحارب بعضها مع بعض بأحلاف قد تكون مزيجاً بين القحطانية والعدنانية .

وإذا كان الأمر كذلك ، وإذا كان العرب قحطانيين وعدنانيين بالأصل ، فكيف تحالفت " جديلة " وهى من " طيئ " مع بنى شيبان وهى من عدنان لمحاربة بنى عبس ؟ وكيف يفسر تحالف قبائل يمنية مع قبائل عدنانية لمحاربة قبائل يمنية ، أو لعقد محالفات دفاعية هجومية معها ؟

ويخلص الدكتور "جواد على" فى النهاية إلى قوله : " بأن تقسيم العرب إلى عدنانيين ويمنيين عرف فى العصر " الأموى " إبان النزاع الحزبى ، وبعد شيوع نظرية التوراة فى الأنساب ، ورجوع النسابيين أهل الكتاب للأخذ منهم ، إذ أن الانقسام المذكور لم يظهر فى العصر الإسلامى السابق لظهوره فى عهد مروان ابن الحكم (٦٤-٦٥هـ / ٦٨٤-٦٨٥م) .

وإذا كان هناك من يرجع جذور هذا التقسيم إلى (عدنانية وقحطانية) إلى أيام النزاع الذى كان قائماً فى الجاهلية بين يثرب ويمثلها الأوس والخزرج اليمنيين ، وبين مكة ، وتمثلها قريش العدنانية .

وفى الإسلام بين الأنصار وهم اليمنيون ، والمهاجرين وهم العدنانيون ، فإن هذا النزاع لم يكن سوى عداءاً طبيعياً بين البداوة والحضارة ، إذ كان العرب من الناحية الاجتماعية ينقسمون إلى أهل وبر وأهل مدر، وأهل الوبر هم " البدو " وأهل " المدر " هم الحضر .

ومثل هذا العداء بالمقارنة كان قائماً فى بلاد المغرب منذ قديم الزمان بين البربر المتحضرين وهم " البرانس " والبربر المتبدين وهم " البتر " ، ويرجع بعض الباحثين هذا النزاع "متأصل بين طائفتى البرانس والبتر إلى أن هاتين الطائفتين تمثلان موجتين بشريتين مختلفتين ؛ إحداها تمثل أهل البلاد الأصليين ، والأخرى تمثل الوافدة التى اغتصبت بلادهم .

ولكننا نرجع سبب هذا العداء بدرجة أقوى كما يقول الدكتور " السيد عبد العزيز سالم " إلى الاختلاف فى أحوالهما الاجتماعية وإغارة الرحل من " زناتة البترية " على مزارع صنهاجة " البرانسية " ، وقد أدى ذلك إلى ظهور الفوارق بين الطائفتين بشكل واضح .

تلك لمحة يسيرة عن العرب وطبقاتهم ، نعقبها بالحديث عن أبرز شعوب العرب البائدة مثل " عاد ، وثمود ، وطسم ، وجديس " .

قوم عاد :

عاد هم قوم سيدنا " هود "عليه السلام ، ويعتبرهم الإخباريون أقدم قبائل العرب البائدة ، ويضربون المثل بعاد فى القِدمْ ، فإذا شاهدوا آثاراً قديمة لا يعرفون تاريخها أطلقوا عليها صفة " عادية " ، وقد ورد ذكر " عاد " فى أشعار العرب الجاهلية ، وفى أشعار المخضرمين من العرب ، لكن القرآن العظيم هو الذى نقل لنا أخبارهم وأوضح لنا شدّتهم وبطشهم حتى كان هلاكهم .

يقول الحق تبارك وتعالى فى سورة النجم آية ٥٠-٥١ " **وأنه أهلك عاداً الأولى ، وثمود فما أبقى** " ، ويقول جل وعلا " **ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد** " سورة الفجر آية ٦-٧ .

ويفهم من الآية خمسين في سورة النجم أن هناك " عاداً " ثانية ، غير الأولى ، وقد أخبر الله عز وجل عن ملك قوم عاد ، وأبان شدة بطشهم ، واهتمامهم بالبنيان الضخم وذلك في قوله تعالى : " كَذَّبَتْ عَادٌ المرسلين ، إذ قَالَ لهم أخوهم هودٌ ألاَ تتقون ، إني لكم رسولٌ أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجرٍ إن أجريَ إلا على ربِّ العالمين ، أتبنُونَ بكل رِيعٍ آيةً تعبَثُون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلُدُون ، وإذا بَطشتُمْ بَطشتُمْ جبارين " سورة الشعراء (آية ١٢٣-١٣٠) .

ولقد أخبر القرآن الكريم عن عاد ونبيهم " هود عليه السلام " وكيف أنهم عصوه ، واستكبروا في الأرض ، فعاقبهم الله عز وجل على ذلك أشد العقاب ، إذ أرسل عليهم ريحاً صرصراً ، وصواعق دمرت مساكنهم ، وقضت عليهم ، حتى أصبحوا عبرة لغيرهم .

يقول الحق تبارك وتعالى : " فأمَّا عَادٌ فاستكبَروا في الأرض بغير الحَقِّ ، وقَالُوا مَنْ أشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ، أو لَمْ يَرَوا أن الله الذي خَلَقَهُم هُوَ أشَدُّ مِنهُم قُوَّةً ، وكَانُوا بآيَاتِنا يَجْحَدُون ، فَأرْسَلْنَا عَلَيهِمْ رِيحاً صَرْصَراً في أيام نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُم عَذَابَ الخِزْيِ في الحَيَاةِ الدُّنيا ، ولَعَذَابُ الآخِرةِ أخْزَى وَهُمْ لاَ يُنصَرُون " سورة فصلت آية (١٥-١٦) .

ويذكر بعض المؤرخين " كالمسعودي " مثلاً في مروج الذهب جـ ٢ ص٤٠ أن عاد كان رجلاً جباراً عاتياً عظيم الخلقة ، وهو (عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح) وينسب إلى ابنه شداد بن " عاد " مدينة " إرم " ، ولقد اختلف المؤرخون في هذه المدينة ، فمنهم من قال بأنها دمشق " كالهمذاني " في

كتابه " صفة جزيرة العرب " ص٨٠ ، ومنهم من قال بأنها الإسكندرية على رواية " ابن عبد الحكم " فى كتابه (فتوح مصر والمغرب) ص٦٠ .

بينما ذهب " الزمخشرى " كما أورد " ابن خلدون " فى " العبر " جـ٢ ص٣٥ ، إلى أن شداد هو الذى بنى مدينة إرم فى صحراء عدن أو الإسكندرية .

وأغلب الظن فى هذه الأقاويل هو كثرة وجود المبانى الضخمة ، والمنشآت الكبيرة فى كل من (الإسكندرية ودمشق) ، وكانت دمشق من ناحية ثانية من أبرز مراكز الآراميين ، ولهذا أكد بعض الباحثين أن " إرم " تعنى " آرام " ، وأن عاداً من الآراميين ، وأن " عاد إرم " تعنى " عاد آرام " ، فالتبس الأمر على المؤرخين ، وظنوا أن " ذات العماد صفة " ، فزعموا أنها المدينة التى أسسها " عاد " ، ولكن هذا القول فنده ورد عليه ابن خلدون ، وقال " أنه ليس هناك مدينة اسمها " إرم " وإنما يقصد بها قبيلة ، وما جاء فى قوله تعالى (إرم ذات العماد) يعنى قبيلة .

وأما السبب الذى دفع بعض الإخباريين إلى القول بأن الإسكندرية هى " إرم ذات العماد " ؛ وجود بعض القصص الذى كتبه بعض القصاص اليمنيين مثل " وهب بن منبه " ، فيذكر أن " الإسكندر " حاول غزو اليمن ، فأصبح شداد بن عاد بانيا الإسكندرية ، والإسكندر هو مكتشفها . راجع جواد على " تاريخ العرب قبل الإسلام " جـ١ ص٢٣٣ .

ويذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن مساكن " عاد " كانت تقوم فى الأحقاف من اليمن ؛ بين اليمن وعمان إلى حضر موت والشِحِر ؛ وذلك استناداً إلى قول الحق تبارك وتعالى " **واذكر أخا عادٍ إذ أنذر قومه بالأحقافِ وقد**

خَلَتِ النُّذُرُ من بين يَدَيْه ومِن خَلْفِه ألاّ تَعْبُدُوا إلا الله إنِى أَخَافُ عليكم عَذَابَ يومٍ عظيم " . سورة الأحقاف آية ٢١ .

وقد حدد المفسرون موضع الأحقاف ، ولما كانت كلمة " الأحقاف " تعنى الرمال ، فقد سارع معظم المؤرخين يلتمسون موضعها فى الصحراء ، ولكن بطليموس ذكر أن شعب Oaditac أو عاد كان يسكن فى المناطق الشمالية الغربية من شبه جزيرة العرب ، وفى منطقة " حسمى " بالذات على مقربة من منازل " ثمود " Thamydeni . ومما يؤيد هذا الفرض أن " عاد " اقترن ذكرها فى القرآن الكريم " بثمود " ، قال تعالى فى سورة الفجر " **وثمود الذين جابوا الصخر بالواد** " آية (٩) ، والمقصود بالواد هنا " وادى القرى " أحد الأودية التى تتخلل سلسلة جبال " حسمى " ، ومن بينها جبل " إرم " الذى يعرف اليوم باسم جبل " رم " ، كما أن منطقة " حسمى " الجبلية تعتبر أقرب إلى مواضع ثمود من مناطق الأحقاف الرملية التى حددها المفسرون بين اليمن وعمان .

وللبكرى رأى فى كتابه " معجم ما استعجم " فيذكر أن الأحقاف التى كانت منازل عاد جبل بالشام أو هى خشاف من " حسمى " ، والخشاف يعنى الحجارة فى الموضع السهل .

ننتقل بعد ذلك إلى الحديث عن ثمود .

قوم ثمود :

" ثمود " هم قوم النبى " صالح "عليه السلام والذى دعاهم إلى عبادة الله فخالفوه ، ولقد ورد اسم ثمود مع اسم عاد أو مع اسم " نوح " فى عدد من آيات

القرآن الكريم ، لأن المراد بذكرهم ترهيب المشركين وإنذارهم بما وقع لهذه الشعوب جزاء تكذيبهم لأنبياء الله ورسله .

ويستدل من آيات القرآن الكريم أن " ثمود " هلكوا على أثر تفجير بركان صحبته رجفة عنيفة أو زلزال إذ قال تعالى : " **فأخذتهم الرجفةُ فأصبحوا في دارهم جاثمين** " سورة الأعراف الآية (٧٨) .

وقول الحق تبارك وتعالى " **وأخذ الذين ظلموا الصيحةُ فأصبحوا في ديارهم جاثمين . كأن لم يَغنَوا فِيها ألا إنَ ثموداَ كفَرُوا رَبهُم ألا بُعداً لثمود** " سورة هود الآية (٦٧-٦٨) .

وقوله تعالى : **وأما ثمودُ فهَدَيْنَاهُم ، فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقةُ العذابِ الهونِ بما كانوا يكسبون**" سورة فصلت آية (١٧)

وقوله جل وعلا " **إنَا أرْسَلنَا عَليهِمْ صَيحةً واحدةً ، فكانوا كهشِيمِ المحتَظِرْ** " سورة القمر آية (٣١) .

كذلك ورد ذكر " ثمود " في أشعار الجاهليين على سبيل التمثيل والتشهير بمصيرهم ، مما يدل على معرفة عرب الجاهلية بأخبارهم .

وقد أشار القرآن الكريم إلى أن قوم ثمود نحتوا بيوتهم في الصخر بالوادي ، " وثمود الذين جابوا الصخر بالواد " وقد فُسرت الآية القرآنية بأن قوم ثمود نقروا بيوتهم في صخور الجبال في وادي القرى .

ويذكر " المسعودي " في " مروج الذهب " أن منازلهم كانت تقع بين الشام والحجاز إلى ساحل البحر الحبشي ، وأن ديارهم " بفج الناقة " وبيوتهم كانت

ما تزال في عصره أبنية منحوتة في الجبال ، ورسومهم باقية ، وآثارهم بادية في طريق الحاج لمن ورد وأقدم من الشام بالقرب من وادي القرى . جـ٢ ص٤٢ .

ويؤكد "ابن خلدون " أن ديارهم " بالحجر " ووادي-القرى فيما بين الحجاز والشام ، وقد مر النبي ﷺ على خرائب ديارهم في غزوة " تبوك " ونهى عن دخولها . كتاب العبر جـ٢ ص٤١ .

كذلك ورد اسم " ثمود " في كتب اليونان ، وحددها " بلنيوس " فيما بين مدينتي دومة الجندل Domata ومدينة الحجر Haegra ، كما حددها بطليموس بالقرب من ديار عاد Oaditae في أعالي الحجاز ، ومن الملاحظ أن " الحجر " كانت محطة تجارية هامة في الطريق التجاري بين اليمن والشام ومصر والعراق.

راجع : الدكتور "جواد علي"، المرجع السابق جـ١ ص٢٤٨ وما بعدها .

وقد تمكن العلماء في العصر الحديث من الكشف عن عدد كبير من النقوش الثمودية في أرض تبوك ومدائن صالح وتيماء ، وفي جبل " رم " وفي الطائف .

ويعتقد " دي برسيفال " أن هناك ثمة تقارب بين الثموديين الذين نحتوا بيوتهم في الجبال وصاحبهم " وقُدار الأحمر " الذي تسبب في نكبتهم حتى قيل : " أشأم من أحمر ثمود " أو أشأم من " عاقر الناقة " وبين " الحواريين " أو سكان الكهوف في بلاد سعير وزعيمهم " كدر لعومر " الواردة أخبارهم في التوراة .

ويعتقد " برسيفال " أن الثموديين هم " الحوريون " سكان بلاد " سعير " حتى برية " فاران " ، ويعلل خلط الإخباريين بينهم بأن الثموديين كانوا يسكنون في مناطق مجاورة للحوريين .

وهكذا ألقينا ضوءاً على " عاد وثمود " وكيف أنقرضت شعوبهم وأبيدت بسبب تجبرهم وبطشهم وعنادهم ، وعدم امتثالهم لأوامر الحق تبارك وتعالى حتى يكونوا عبرة لمن يعتبر .

طسم وجديس :

فى المصادر العربية يقترن اسم طسم وجديس بعضهما بالبعض اقتران (عاد وثمود ، وطسم وجديس) قبيلتان عربيان من قبائل العرب البائدة ، يرتفع نسبهما إلى " لاوذ بن إرم " ، ومما ذكر فى تاريخ العرب القديم نرى أن منازلهم كانت اليمامة والبحرين ، وكانت اليمامة تتسم بالخصب وتتميز بالعمران ، وفيها أنواع من الثمار والأشجار والحدائق والقصور . وفى ذلك قال " المسعودى "" وفيها صنوف الشجر والأعناب ، وهى حدائق ملتفة وقصور مصطفة " مروج الذهب جـ٢ ص١٣٦ .

ويذكر الإخباريون أن ملك " طسم " كان ملكاً غشوماً يقال له " عملوق " ، ولم يكن ينهاه شيئ عن هواه مع إصراره وإقدامه على " جديس " ، وتعديه عليهم وقهره إياهم ، وانتهاك حرمتهم ، فقامت امرأة من " جديس " اسمها " الشموس " وهى " عفيرة ابنة غفار بن جديس " بتحريض قومها على الثورة على " عملوق " ويوردون لها أبياتاً من الشعر فى تحريض قومها مثل :

فلو أننا كنا الرجال وكنتم
نساءُ لكنا لا نقر على الذل
فموتوا كراماً ، واصبروا لعدوكم
بحرب تلظى فى القرام من الجذل

ولا تجزعوا للحرب يا قوم إنمـــا

تقـــوم بأقـــوام كرام على رجـــل

وهكذا نجحت " الشموس " فى استثارة قومها على طسم ، فتولى زعيـــم " جديس " ويسمى " الأسود بن غفار " قتل " عملوق " الطسمى ، وتولــــى قـــوم " جديس " قتل بنى " طسم " وانتهبوا ديارهم ، فنجا رجل من طسم يقال له " ربـــاح بن مرة الطسمى " فشخص إلى " حسان بن تبع الحميرى " ملك اليمن ، فاســـتعان به على " جديس " ، فنصره حسان ، وأقبل بجمع كبير من حمير ، وأغار علـــى منازل " جديس " باليمامة ، فاستباح أهلها قتلاً وأبادهم .

راجع المسعودى : مروج الذهب جـــ٢ ص١٣٩-١٤٠ .

وظلت اليمامة أطلالاً دارسة بعد أن خربها الحميريون إلى أن نزلها بنـــو حنيفة ، واستوطنوها حتى ظهور الإسلام .

ومن المواضع المنسوبة إلى " طسم " حصن " المشقر " ويقع بين نجـــران والبحرين ، وقصر " معنق " ، وقصر " الشموس " من بناء جديس باليمامة ، هـذا إلى جانب حصون وقصور عديدة .

أميم وعبيل :

هم أخوة " عملاق بن لاوذ " ومن أميم " وبار بن أميم " الذين نزلوا رملـى عالج بين اليمامة والشحر ، ويزعم الإخباريون أن أميم نزل أرض فارس ، ولذلك يعتز الفرس بأنهم من ولد " كيومرث بن أميم " ، وفى ذلك يفخر بعض شـــعراء فارس فى العصر الإسلامى :

أبونا أميم الخير من قبل فـــارس
وفارس أرباب الملوك بهم فخرى
وما عُدّ قوم من حديث وحـــادث
من المجد إلا ذُكِرنَا أفضلَ الذكر

وينسبون إلى شعب " أميم " أنهم أول من ابتنى البنيان وسقف الســقوف ، واتخذوا البيوت والآطام من الحجارة .

وعُبَيْل من ولد "عوص" أخى عاد ، ويذكر الإخباريون أنهم نزلوا بموضع مدينة يثرب فاختطوها ، وتم ذلك على يد رجل منهم يقال له يثرب بن بائلة بـــن مهلهل بن عبيل .

وأقامت عبيل بيثرب إلى أن أبادهم العماليق ، وقد ورد فى التوراة اســـم ولد من أولاد " يقطان " هو " عيبال " أو " عوبال " ، ولعل المقصود بهذا الاســـم " آل عبيل " المعروفة فى المصادر العربية ، وقد بادت " عبيل " بســـبب ســـيل جارف دمر مواضعهم بالجحفة ، واجتحفهم إلى البحر ، فسمى الموضع بالجحفة .

ويشير بطليموس إلى موضع يقال له Avalitae ولعله " عبيل " العربية ، كما ورد هذا الاسم عند " بلنيوس " محرفاً بعض الشيئ وهو Abalitae .

تلك لمحة يسيرة عن " طسم وجديس " من العرب البائدة ، لننتقل لإلقـــاء ضوء يسير عن بقية العرب البائدة مثل (جرهم ، وعبد ضخم بن إرم، وحضورا، وبار بن أميم ، وبنو داسم) .

جرهم :

" جرهم من بنى أرفخشذ بن يقطن بن عابر بن شالخ "، وكانت ديارهم باليمن ثم نزلت " جرهم " الحجاز لقحط أصاب اليمن ، وأقاموا فى مكة حتى قدمها " إسماعيل "عليه السلام ، وصاهرهم ، وآلت إليهم ولاية البيت حتى غلبتهم عليه خزاعة وكنانة ، فنزلوا بين مكة ويثرب ، ثم هلكوا بوباء تفشى بينهم .

عبد ضخم بن إرم :

ومن العرب البائدة أيضاً عبد ضخم بن إرم ، وكانوا يسكنون الطائف ، وقد هلكوا ببعض غوائل الدهر ، فدثروا ، ويذكر الإخباريون أنهم أول من كتب بالعربية .

حضورا . " قوم سيدنا شعيب "

ومن العرب البائدة أيضاً " حضورا " وكانت مساكنهم بأرض السماوة ، وقد خالفوا نبيهم " شعيب بن ذى مهرع " ، وقيل " ابن مهدم بن حضورا " ، وقتلوه وبادوا ، وبادت ديارهم ، ويعتقد بعض العلماء أن بنى " حضروا " هم أنفسهم " بنى هدورام " ابن يقطان المذكور فى التوراة .

وبار بن أميم :

ومنهم قوم " وبار بن أميم " وكانوا يعيشون بالقرب من عدن ، وكان نبيهم " حنظلة بن صفوان " فخالفوه فهلكوا .

بنو داسم :

ومنهم بنو داسم وكانت ، وكانت ديارهم " بالجولان وجازر " من أرض نوى من بلاد حوراج والبثنية .

وهكذا تابعنا معاً نبذة عن العرب من حيث طبقاتهم ، وكيف أن هناك منهم شعوباً قد أبيدت عبرة لغيرهم مثل " عاد ، وثمود ، وطسم ، وجديس ، وأميم، وعبيل ، وجرهم ، وعبد ضخم ، وحضورا ، وبار بن أميم ، وبنو داسم " وغيرهم ولا يفوتنا أن هناك العرب الباقية الذين عمروا وكثر نسلهم ولعلنا من نتاجهم .

الحالة السياسية فى الجزيرة العربية

يمكن التمييز بين عدد من القوى السياسية التى نشأت فى الجزيرة العربية؛ شمالها ، وجنوبها ووسطها ، وكان بالطبع لها أكبر الأثر فى تاريخها قبل الإسلام ، ففى الشمال كانت بعض الدول مثل : الأنباط ، وتدمر ، والغساسنة ، والمناذرة ، وفى الجنوب كانت بعض الدول مثل : معين ، وسبأ ، وحمير ، وفى الوسط أيضاً كانت بعض القوى السياسية ، وسوف نحاول إماطة اللثام عن هذه القوى السياسية .

القوى الشمالية على تخوم الشام والعراق :

(أ) دولة الأنباط :

كان للنشاط التجارى فى بلاد اليمن والحجاز أثر كبير فى قيام دويلات عربية على تخوم الشام والعراق فى العصر السابق على ظهور الإسلام ، فقد كانت بادية الشام وجنوبى فلسطين مركزاً لهجرات متتابعة من جنوب الجزيرة العربية ، منذ أوائل التاريخ الميلادى مثل قبيلة (تنوخ ، وبنى سليح ، وآل جفنة) ، وكانت قرية " بوريكة باللجة " يطلق عليها فى العصر الرومانى اسم " بوريكة السبئيين " ، إلا أن استقرار قبائل عربية فى بادية الشام يرجع فى حقيقة الأمر إلى عصور سابقة للعصر الرومانى ، ومن أقدم الشعوب العربية التى استقرت فى جنوب فلسطين شعب الأنباط .

ومن المعروف أن مملكة النبط قامت فى شمال الحجاز ، وتنسب إلى شعب عربى عرف عند اليونان باسم Nabataei أو النبط ، سكنوا بادية الشام ، وجنوب سورية فى القرن السادس قبل الميلاد تقريباً .

ولم يعثر في المصادر العربية على أخبار الأنباط ، ولا في الوثائق الخاصة بحملات الأشوريين على الشام ومصر ، وإنما استقى تاريخهم من كتابات الإغريق، ومن الكشوف التي أسفرت عنها الأبحاث الأثرية في البتراء وحوران .

ولقد اتخذ الأنباط اللغة الآرامية لغة للكتابة النبطية ، والخط النبطي على هذا النحو خط آرامي ، ولكنه متطور عن الخط الآرامي القديم .

ومن أقدم الرقم النبطية رقم النمارة شرقي حوران ، ويرجع تاريخه إلى عام ٢٣٨م ، ولقد أرخ به قبر " إمرئ القيس " من ملوك الحيرة ، وقد عثر على كتابات نبطية مؤرخة أيضاً في جرش ، وماريا ، والخط النبطي قريب من الخط الكوفي القديم الأمر الذي دعا كثير من العلماء إلى القول بأن هذا الخط مشتق من الخط النبطي .

وتتميز بلاد " الأنباط " بأنها جبلية قفراء ، قليلة المياه تكثر فيها المرتفعات الصخرية الوعرة والشعب . وبالتالي انعكست هذه الطبيعة على الأنباط أنفسهم وطبعتهم بطابعها الصعب ، ومن هنا عرف الأنباط بشدة المراس واتصفوا بالعنف وميلهم للغزو .

وإذا كانت هذه البيئة قاسية على سكانها ، فإنها كانت أيضاً قاسية على أعدائهم ، فلم يتمكنوا من إخضاعهم ، وقد حاول كل من (الأشوريين والفرس والإغريق) قهر هذا الشعب لكنهم لم ينجحوا في ذلك . وعلى هذا الأساس أطلق الإغريق على هذه البلاد بلاد العرب الصخرية ، كما سميت عاصمتهم بالبتراء Petraea أي الصخرة ، وهي تقارب في معناها كلمة " سالع " العبرانية المذكورة في التوراة ، وتعني الشق في الصخر ، والتسمية العربية مترجمة من اليونانية ، ومن الملاحظ أن التسمية العبرانية أكثر دقة ، لأن مدخل البتراء يتسم بوجود

أخدود عميق بين جبلين يعرف اليوم باسم السيق ، ولعله لفظ نبطى متوارث ، حرفه الناس عن كلمة " الشق " فى البيئة القديمة .

راجع لا نكستر هاردنج ، آثار الأردن ، ترجمة سليمان موسى ، عمان ١٩٦٥ ص١١٧ .

وتعرف البتراء فى المصادر العربية باسم الرقيم ، وهى تسمية عربية أطلقت على آثار هذه المدينة بعد ظهور الإسلام ، ولعلها كلمة معربة لاسم شان لهذه المدينة ، كان الإغريق يعرفونها به وهو Arke ، فحرفوها العرب ، وقالوا: " الرقيم " ، ولما كانت هذه الكلمة تعنى النقش القديم . فقد زعم الإخباريون أنها المدينة التى أقام فيها أهل الكهف ، واشتهرت أطلالها فى العصر الأموى بوجه خاص ، وكان الخليفة الأموى " يزيد بن عبد الملك " ينزلها .

أما اليوم فالبتراء تعرف (بوادى موسى) أو باسم البتراء ، وهو الاسم اليونانى المعرب ، وتقع على سطح هضبة قاحلة يبلغ ارتفاعها حوالى ٣٠٠٠ قدم وتحيط بها الجبال من سائر الجهات بحيث يتعذر الدخول إليها إلا من الممر الضيق المعروف بالسيق .

وقد أشار " المقدسى " فى كتابه " أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم " إلى موضع " البتراء " ، كما وصف الاصطخرى بعض أبنيتها المنحوتة فى الصخور، ولعله يقصد بهذه الأبنية البناء المعروف باسم " الخزنة " والذى بداخله " جرة " اعتقد أنها مملوءة بالذهب لذلك نالت من رصاص الأعداء كثيراً ، وهى سبب معرفة البناء بالخزنة .

وقد استغل الأنباط انقسام قواد الإسكندر الأكبر ، ومدوا نفوذهم من " غزة " إلى " أيلة " ، وازدهرت " البتراء " فى نهاية القرن الرابع ق.م ، وظلت زهاء أربعمائة سنة تشغل مكاناً مهماً على طريق القوافل التجارية الذى يمتد ما بين اليمن والشام ومصر .

الصراع بين الأنباط والإغريق :

يذكر " ديودور الصقلى " المتوفى عام ٥٧ ق.م أن " انتيجوناس Antigonas " حاكم سوريا اليونانى ، قد أغار عام ٣١٢ ق.م على مدينة " البتراء " عاصمة الأنباط ؛ وذلك بسبب علاقة ودية بين الأنباط " وبطليموس " ، وبالطبع هناك أسباب أخرى تتعلق بالمصالح الاقتصادية .

المهم أن حملة تتألف من أربعة آلاف من المشاة ، وستمائة فارس بقيادة " أثنيوس " توجهت بأمر من " انتيجوناس " صوب " البتراء " لاجبار النبط على التحالف مع انتيجوناس ، وقد فاجأت هذه الحملة " الأنباط " بالهجوم فى منتصف الليل ، وكان معظم شباب " النبط " غائبين عن العاصمة ، وبالطبع أتاحت هذه الفرصة لتقدم أحرزه الإغريق ، فغنموا وأسروا وقتلوا ، ومما غنموه " اللبان ، والمر ، والبخور ، والتوابل ، والفضة " وغير ذلك .

بدأت الحملة عودتها بعد هذه المكاسب ، وما أن أدركها التعب حتى استراح رجالها فى الطريق داخل معسكر نصبوه خصيصاً لذلك ، وفى تلك الأثناء كان شباب النبط قد عادوا إلى " البتراء " ، وشاهدوا ما حدث لعاصمتهم من السلب والنهب ، فقرروا العودة والهجوم على معسكر الإغريق ، وبالفعل كروا على المعسكر ، واستولوا على ما فيه مستردين بذلك أموالهم ، ثم عادوا إلى

عاصمتهم ، ثم كاتبوا " انتيجوناس " مبررين له ما حدث معتذرين له عما حدث ، لاسيما وأنهم لم يبقوا لانتيجوناس من جيشه سوى خمسون فارساً ، وقد تظاهر " انتيجوناس " بقبول هذا الاعتذار ، لكنه كان يضمر النية على الانتقام .

لم يمض وقت طويل حتى جهز " انتيجوناس " حملة ثانية قوامها أربعة آلاف من الفرسان ، ومثلها من المشاة بقيادة ابنه " ديمتريوس " ، ووجهها صوب البتراء ، لكن " الأنباط " فى هذه المرة كانوا قد استوعبوا الدرس السابق ، فبثوا العيون والحراس فى المناطق المهمة للإنذار بقدوم العدو ، وما أن ترامت لهم الأخبار بتقدم العدو ، حتى أخذوا حذرهم ، فأمنوا أموالهم ، وأخفوا أمتعتهم ، ثم تفرقوا فى الصحراء ، وما أن وصل ديمتريوس إلى "البتراء " لم يستطع اقتحامها، وعاد أدراجه دون إحراز أى تقدم مقتنعاً ببعض الهدايا التى قدمت له .

راجع : الدكتور " السيد عبد العزيز سالم "، دراسات فى تاريخ العرب (قبل الإسلام) الإسكندرية ، ص١٦٠-١٦١ .

ولعل ما رواه " ديودور الصقلى " يدل على أن الأنباط وصلوا إلى درجة من القوة جعلتهم يردون جيش " انتيجوناس " على أعقابه ، لكن فى نفس الوقت يكشف لنا عن احتياج المدينة " البتراء " إلى تدعيم ، وقد وضح ذلك من خلال الحملة الأولى .

هذا وقد أصبحت " البتراء " فى القرن الأول قبل الميلاد أهم مراكز التجارة القادمة من جزيرة العرب ، لا سيما وأن موقعها قد ساعدها على ذلك فكانت فى ملتقى الطرق بين العراق شرقاً ، واليمن جنوباً ، وسوريا وفلسطين شمالاً ، ومصر غرباً ، وقد أثرى الأنباط لهذا ثراءاً كبيراً ، وما أن أحسوا بتفوق

البطالسة فى النشاط التجارى ، حتى تحرشوا بسفنهم ، وقطع الطرق البحرية عليها ، الأمر الذى دفع بطليموس الثانى (٢٨٥ – ٢٤٦ ق.م) لإنشاء قوة بحرية لحراسة سفنه التجارية ، لكن الأنباط كانوا دائماً يغتنمون الفرصة تلو الأخرى للهجوم على سفن بطليموس .

أشهر ملوك الأنباط :

أول ملوك " الأنباط " الملك " أريتاس Aretas " الأول أو الحارث (١٦٩–١٤٦ ق.م) وكان معاصراً لأنطيوخوس الرابع السلوقى ملك سوريا ، وبطليموس فيلوماتر ملك مصر ، وقد حالف الحارث النبطى جيرانه المكابيين بنى حشمناى ضد السلوقيين ، ففى عام ١٦٨ ق.م قام يهوذا المكابى بالثورة على السلوقيين ، ونجح فى احتلال بيت المقدس .

ومن أشهر ملوك الأنباط الحارث الثانى الذى تولى مملكة الأنباط فيما بين ١١٠ ق.م و ٩٦ ق.م وكان يعرف باسم ايروتيموس Erotimus ، وفى عهده طلب " يوناثان " الذى تولى الأمر بعد مصرع أخيه يهوذا المكابى عام ١٦١ ق.م من " النبط " أن ينصروه على أعدائه ، وقد سير لهذا الغرض أخاه " يوحنا " ليسأل الأنباط أن يمدوا له يد العون ، مما يدل على حسن العلاقات بين الأنباط والمكابيين ، وأن الأنباط كانوا على درجة من القوة ، إلا أن جماعة من العرب الذين يقطنون ميديا ويعرفون ببنى " يمرى " غدروا بيوحنا المكابى وقتلوه ، لكن سياسة حسن الجوار بين الأنباط والمكابيين لم تستمر طويلاً ، فسرعان ما تغير الوضع إلى عداء بسبب المصالح الخاصة .

ويعتبر الحارث الثالث النبطى (٨٧-٦٢ ق.م) أشهر ملوك الأنباط على الإطلاق ، إذ اقترن اسمه بالعديد من الفتوحات التى هيأت المجال للأنباط أن يوسعوا نطاق أملاكهم على حساب السلوقيين واليهود فى وقت واحد ، وعلى هذا الأساس يعتبر الحارث الثالث هو المؤسس الحقيقى لدولة الأنباط .

ولقد اصطدم " الحارث " هذا بالسلوقيين فيذكر أنه فى عام ٨٦ ق.م وقع صدام بينه وبين " انطيوخوس ديونيسوس" فى معركة عنيفة حدثت عند قرية Cana الواقعة على ساحل يافا ، وفيها انهزم السلوقيون هزيمة نكراء وسقط ملكهم صريعاً ، واستجاب الحارث بعد هذا الانتصار الكبير إلى دعوة سكان دمشق ليقيم نفسه حاكماً عليها وعلى الأقاليم التابعة لها بما فيها من سهول مثل سهل البقاع ، وكان ذلك عام ٨٥ ق.م ، وبذلك تخلص سكان دمشق من مصير سيئ بالنسبة لهم فيما لو سقطت بلادهم بيد الأمير " الإيتورى " الذى كان يطمع فى عرش سورية .

وهكذا ضيق الأنباط على مملكة يهوذا المتداعية من الشرق والجنوب ، وأصبح من الطبيعى بعد ما أحرزه " الحارث " من انتصارات على اليهود والسلوقيين أن ضغط على المكابيين فى بيت المقدس ، وسرعان ما اشتبك معهم فى معركة وقعت عند مكان يعرف باسم Addida (الحديثة) بالقرب من اللد ، وفيها هزم اليهود هزيمة نكراء وطلبوا الصلح بما يرتضيه الأنباط .

ولقد حظى " الحارث الثالث " بحب أهل دمشق له ، حيث لقبوه بمحب الهللينيين " Philhellene " ، والجدير بالذكر أن " الحارث " كان مغرماً بالفن الهلنستى الشائع فى سورية ، ويتضح ذلك فى أسلوب البناء الذى اتسمت به

" البتراء " ، وقد تابع الحارث خلفاؤه فى هذا السبيل ، وقد عثر على عملات نبطية نقش عليها اسم " الحارث الثالث "، وهى عملات متأثرة بنظائرها التى ضربت فى دمشق أيام " ديمتريوس الثالث ".

وبعد وفاة " الحارث الثالث " تولى مملكة الأنباط ابنه " عبادة الثانى " (٦٢-٤٧ ق.م) ، وفى أيامه امتد نفوذ الرومان فى الشام ، وبعض مدن الشرق كسورية وآسيا الصغرى ، وانتزع الرومان فى الشام ما كان بيد الحارث من قبل، ويبدو أن سياسة الأنباط بعد " الحارث الثالث " كانت تهدف إلى المحافظة على استقلال مملكتهم ، وحمايتها من النفوذ الرومانى ، لذلك ارتبطوا منذ عهد " عبادة الثانى " مع الرومان برابطة " الحلف "، ولعل ما يؤيد ذلك اشتراكهم فى عهد " مالك الأول " Malichus (٤٧-٣٠ ق.م) بفرقة من الفرسان فى حملة " يوليوس قيصر " على الإسكندرية عام ٤٧ ق.م ، وفى عهد " مالك الأول " تمكن الرومان ، ويمثلهم " انطونيوس " من إسقاط الأسرة المكابية اليهودية فى بيت المقدس ، ووضعوا مكانها الأسرة " الهيرودية " الموالية لهم .

وفى عهد الملك النبطى " عبادة الثالث " (٣٠-٩ ق.م) اشترك الأنباط فى الحملة التى أرسلها أغسطس قيصر بقيادة " اليوس جالوس " لغزو بلاد اليمن ، وتولى صالح Syllaeus وزير " عبادة " مهمة إرشاد الجيش الرومانى إلى الطريق الذى يسلكه فى بلاد العرب ، لكن الحملة انتهت بالفشل ، وأخفق الرومان فى الاستيلاء على اليمن ، ويعزو " استرابون " هذا الفشل إلى خيانة " صالح " دليل الحملة ، إذ سار فى طرق وعرة شديدة الجفاف . مما أسفر عن موت عدد من الرومان عطشى .

وفى عهد " مالك الثانى " ابن الحارث الرابع (٤٠-٧١ ق.م) اشترك الأنباط بفرقة من الجيش عدتها ألف فارس ، وخمسة آلاف من المشاة ، عام ٦٧م فى الحملة التى سيرها الإمبراطور " طيطس " لمهاجمة بيت المقدس ، وقد وجدت عدة عملات فضية ، وبرنزية نقش عليها صورته ، وصورة زوجته " شقيلة " ، وصورة أخته فى آن واحد ، ومما لوحظ أن ملوك الأنباط بدأوا ينقشون صورهم وصور زوجاتهم منذ أيام " عبادة الثالث " .

أما آخر ملوك الأنباط فهو "مالك الثالث" (١٠١-١٠٦ ق.م) ، وفى عهده قضى الأمبراطور الرومانى " تراجان " على مملكة الأنباط ، ففى عام ١٠٦م أنفذ " تراجان " حملة بقيادة " كور نيلوس بالما " نائب تراجان فى سورية إلى البتراء، وعلى يدى تراجان سقطت مملكة الأنباط ، وأدمجت فى الكورة العربية التى أنشأها الرومان لحماية سورية من هجمات البدو ، وجعلوا عاصمتها مدينة (بصرى) التى ورثت " البتراء " اقتصادياً وسياسياً . هذا عن الجانب السياسى لدولة الأنباط ، ننتقل بعد ذلك إلى الحديث عن حضارتها لتكتمل النظرة التاريخية.

حضارة الأنباط وبعض آثارهم :

تعتبر حضارة الأنباط حضارة مركبة على حد قول الدكتور" فيليب " حتى فى كتابه " تاريخ سورية " جـ١ ص٤٢٦ ، فهى عربية فى لغتها ، أرامية فى كتابتها ، سامية فى ديانتها ، يونانية رومانية فى فنها وهندستها المعمارية ، ولكنها مع كونها ذلك عربية فى جوهرها ، فالأنباط عند مؤرخى اليونان والرومان عرب ويؤكد هذه الحقيقة أن أغلب الأسماء التى كانت شائعة لديهم تشبه الأسماء التى كان يستعملها عرب الجنوب وعرب الشمال فى شبه الجزيرة العربية .

نذكر من هذه الأسماء " حارثة ، ومالك ، وجزيمة ، وكليب ، ووائل ، ومغيرة ، وقصى ، وعدى ، وعائذ ، وعمرو ، وعميرة ، ويعمر ، ومعن ، ووهب الله ، وعلى ، وحبيب ، وسعيد ، وجميلة ، وهاجر ، وشقيلة ، وهانئ ، وجدلة ، وعبد الملك ، وسعد الله ، وحميد ، وحوشب " .

ومما لاشك فيه أن لغة الأنباط لهجة عربية شمالية ، فكثير من الكلمات الواردة فى النقوش النبطية السكتشفة عربية خالصة مثل " قبر " ، بل أننا نلاحظ فى بعض النقوش أن عبارات بأكملها تكاد تكون عربية .

أما عن الديانة :

فقد شارك الأنباط العرب فى عبادة بعض الأصنام المعروفة فى العصر الجاهلى مثل " ذى الشررى " المعروف لديهم " بذوشرى " ، وهو الإله الرئيسى عندهم ، ويعنى أنه صاحب أرض بهذا الاسم لعلها الشراه ، وهى منطقة جبلية حول البتراء ، ويتمثل هذا الإله فى صورة كتلة من الصخر ، أو عمود صخرى ، و" ذوشرى " هو إله الشمس . ومن آلهتهم : اللات " ألت " ألهة القمر ، وهى أم الآلهة ، وقد تحولت إلى أثينا " عند اليونان " ، ومنها أيضاً مناه " منوتن" ، و" هبل " " هبلو " ، و"شيع القم " ، أى حامى القوم وهو إله القوافل ، ومنها " العزى " ، ومعظمها آلهة ورد ذكرها فى القرآن الكريم ، وقد انتقلت عبادة بعض هذه الآلهة إلى مكة على يدى " عمرو بن لحمى " الخزاعى بعد عودته من البلقاء .

وحضارة الأنباط تقوم على التجارة ، لأن " البتراء " كانت بمثابة المركز التجارى الاقتصادى الرئيسى للطرق التجارية ، ما بين غزة وبصرى ، وما بين

دمشق وأيلة ، وقد أمتد النشاط التجارى للأنباط إلى مناطق نائية ؛ إذ عثر على آثار تجارتهم فى سلوقية ، والإسكندرية ، ورودس ومليتوس ، وديلوس وموانئ سورية ، بل إن بعض الآثار الكتابية عثر عليها مبعثرة عند مصب الفرات .

وكانت أهم السلع التى يقومون بالتجارة فيها العطور والطيوب اليمنية والمنسوجات الحريرية من دمشق والصين ، والحناء العسقلانى ، واللآلئ من الخليج العربى ، هذا بالإضافة إلى بعض المنتجات المحلية كزيت السمسم والذهب والفضة ، ومن ناحية أخرى فإن صناعة الأوانى الفخارية أهم ما كانوا يشتغلون به من صناعات ، ولقد كان فخارهم من الدقة فى الصناعة ، والرقة بحيث لا يقل فى الجودة عن الخزف الصينى ، وكانت الجفان الفخارية تزدان بنقوش دقيقة تدهن باللون الأسود ، وتعبر القطع الخزفية التى أسفر عنها الكشف الأثرى سواء كانت هذه القطع خاصة بالكؤوس أو الصحون عن تفوق فى هذه الصناعة ، فهى من الرقة بحيث تشبه قشر البيض .

راجع الدكتور " فيليب حتى "، تاريخ سورية جـ١ ص ٤٢١ .

ومن آثار الأنباط التى بقيت : البناء المنقور فى الصخر المعروف باسم " الخزنة "، وآثار المسرح الذى يفضى إلى سهل فسيح تتناثر فيه الكهوف الطبيعية أو المحفورة فى الصخر ، وبناء يعرف بالدير ، وهو بناء ضخم يبلغ عرضه نحو ٥٠ متراً ، وارتفاعه ٤٥ متراً ، ويزدان بواجهة من الطراز الهللنستى ، وبداخل الدير قاعة فسيحة زود جدارها الخلفى بجوفة أقيم فيها نصيب حجرى يمثل الإله " ذا شرى" ويرجع تاريخ بناء الدير إلى القرن الثالث الميلادى، وهناك آثار بناء يعرف بقصر البنت أو قصر بنت فرعون لعله أقيم فى العصر الرومانى ، وغير ذلك من الآثار .

تابع القوى السياسية فى جهة الشمال على تخوم الشام والعراق

(ب) دولة تدمر :

- **تفسير اسمها :** تقع آثار مدينة تدمر الباقية على مقربة من حمص ، وعلى مسافة ١٥٠ كم شمال شرقى دمشق ، فى منتصف الطريق تقريباً بين دمشق والفرات ، لذلك كانت " تدمر " تعد من المراكز المهمة للقوافل التجارية بين (العراق والشام) .

وبالرغم من الأبحاث المتعددة إلا أن اسم " تدمر " مازال مجهولاً من حيث أصل التسمية ، ولقد ورد اسم تدمر لأول مرة فى نقش يرجع تاريخه إلى أيام الملك " تجلات بلاسر الأول " على هذه الصورة " تدمر أمورو " ، وقد عرفت " تدمر " عند كتاب اليونان باسم بلميرا Palmyra ، ولوحظ أن المقطع الثانى من بلميرا وهو " Myra " قريب من المقطع الثانى لكلمة تدمر Mor الأمر الذى دعا إلى التساؤل عما إذا كان هناك ثمة صلة بين التسميتين ، وأن اليونانية أو اللاتينية حرفت اسم المدينة الأصلى عن تدمر Palmyra .

ويعتقد بعض العلماء أن كلمة بلميرا مشتقة من كلمة " Palma " اللاتينية بمعنى " النخيل "، وأن تدمر سميت بلميرة منذ أن تغلب عليها " الاسكندر الأكبر"، وذلك لكثرة ما كان يزرع فيها من أشجار النخيل .

وهناك اعتقاد بين بعض الباحثين أن كلمة " بلميرا " ترجمة لكلمة " تامار" العبرانية التى تعنى النخلة ، وأن " تامار " العبرانية اسم موضع أو بلدة تقع إلى الجنوب الشرقى من يهوذا وفقاً لما ورد فى التوراة (سفر حزقيال ، اصحاح ٤٧-٤٩) ،

ويذكرون أن " تامار " هى البلدة التى بناها سليمان ، وورد ذكرها فى التوراة فى جملة المدن التى أسسها سليمان ، ولكنها ذكرت تحت اسم تدمر .

لكن " ياقوت الحموى " يستبعد نسبة تدمر إلى " سليمان " ، فيعلق على زعم الإخباريين بقوله " وأهل " تدمر " يزعمون أن ذلك البناء قبل " سليمان بن داود " عليه السلام بأكثر مما بيننا وبين سليمان ، ولكن الناس إذا رأوا بناءاً عجيباً جهلوا بانيه أضافوه إلى " سليمان وإلى الجن ".

وهناك من الإخباريين العرب من ينسب بناء " تدمر" إلى شخصية خرافية هى " تدمر بنت حسان بن أذينة بن السميدع " التى يرتفع نسبها إلى سام بن نوح، والواقع أن تدمر لم تكن من بناء " سليمان "عليه السلام ؛ لأن ملكه لم يكن قد امتد إلى هذه البلاد ، وأغلب الظن أن " تدمر " نشأت حول نبع ماء فى البادية ، فقصدها البدو ، واستقروا فى واحتها ، فقد ورد اسم " تدمر " لأول مرة فى نقوش تجلات بلاسر الأول " المتعلقة بحملاته ضد العموريين عام ١١٠٠ ق.م ، وساعد أهلها بنوخذ نصر فى هجومه على القدس ، وبدأت " تدمر " تظهر منذ ذلك الحين كمركز تجارى هام وطريق للقوافل بين العراق والشام ، خاصة بعد قيام الدولة الأكمينية ، فلما سقطت الدولة الأكمينية على يدى " الإسكندر "، وربط " الإسكندر" بين الشرق والغرب ، وتابع سلوقس هذه السياسة التى تهدف إلى خلق دولة متحدة من الفرس والمقدونيين ، اشتهرت تدمر كدولة تجارية تمر بها قوافل التجارة بين العراق وسوريا .

وقد وصفها " بلنيوس " بأنها مدينة شهيرة لها موقع ممتاز ، ووصف أرضها بالخصب ، وكثرة الينابيع والعيون ، والواقع أن موقع تدمر يدين بشهرته

إلى توافر مياهها الكبريتية ، وخصوبة حدائقها ، ثم إلى التباين بين الصحراء الكبرى العارية المترامية نحو الجنوب وبين سلسلة الجبال التى قد تكن عليها تدمر فى الشمال .

من تاريخ تدمر :

إن تاريخ " تدمر " السابق على التاريخ الميلادى غير معروف على وجه الدقة ، إذ أن أقدم الكتابات التى عثر عليها فى " تدمر " لا يتجاوز تاريخها سنة ٩ ق.م .

ولقد حافظ التدمريون على استقلال بلادهم إبان النزاع بين البارثيين والسلوقيين ، ولكن الرومان طمعوا فى الاستيلاء عليها منذ عام ٤١ ق.م ، وذلك عندما حاول " ماركوس انطونيوس " غزوها ، فاضطر أهلها إلى الجلاء عنها حاملين معهم أموالهم وأمتعتهم ولا ندرى على وجه الدقة ما أسفرت عنه حملة " انطونيوس " ، وأغلب الظن أن " تدمر " اعترفت بسيادة رومة مع احتفاظها باستقلالها ، ولكن من المرجح أنها دخلت فى فلك الدولة الرومانية أواخر القرن الأول الميلادى ، إذ كانت من بين المدن التى أدخلها الأمبراطور " تراجان " فى الكورة العربية عام ١٠٦م .

وفى عام ١٣٠م زارها الأمبراطور " هادريان " ومنحها لقب Hadriana Palmyra ، وأصبحت تسمى " بهادريانا بلميرا " أو " هادريانا بولس " Hadriana Polis ، كما منح أهلها حقوق أهل رومة ، مثل حق الملكية المطلق، والحرية الكاملة فى إدارة سياسة المدينة ، وحق إعفاء تجارتهم من الضرائب .

ولقد منحت تدمر فى عهد " هادريان " ، وقيل فى عهد " سبتميوس سفروس " (١٩٣-٢١١م) ، وقيل فى عهد " كراكلا "، درجة مستعمرة رومانية، وبدأ التدمريون يتخذون منذ ذلك الحين أسماء رومانية تضاف إلى أسمائهم العربية أو الآرامية باعتبارهم أصبحوا من رعايا الدولة الرومانية مثل اسم "سبتميوس" الذى أضافته إحدى الأسرات "التدمرية"، واسم "جوليوس أوريليوس".

أما السلطة التنفيذية والإدارية التى تنحصر فى مجلس الشيوخ والشعب فقد يتولاها رجال يحملون ألقاباً يونانية مثل Proedros ، أى الرئيس ، وGrammateus ، أى الكاتب ، وأسماء بعض الوظائف الأخرى .

وجدير بالذكر أن التدمريين انتهزوا فرصة انشغال الدولة الرومانية بالغزوات الجرمانية التى كانت تهدد دولتهم فى أوربا الغربية ، وأخذوا يوسعون رقعة بلادهم ، فأصبحت دولة " تدمر " تشمل عدداً من المدن الصغيرة التابعة لها مثل " دور أوروبس " والرصافة التى كانت تسمى فى الكتابات الأشورية باسم Rasappa والتى سميت بعد ذلك باسم " سرجيو بولس " نسبة للقديس "سرجيوس" الذى استشهد فيما يقرب من عام ٣٠٥م فى عهد الأمبراطور دقلديانوس ، ومع ذلك ظل التدمريون أوفياء للرومان .

راجع د/ فيليب حتى ، تاريخ سورية ، جـ ١ ، ص٤٣٦ .

ولما نشب الصراع بين (الساسانيين والرومان)، استغل التدمريون هذا الموقف أفضل استغلال ، إذ حظى رئيس إحدى الأسرات وهو " سبتميوس أودوناتوس " Odaenathus ، والمعروف فى المصادر العربية باسم " أذينة بن

السميدع " ، والذى يرتفع نسبه وفقاً " للطبرى " إلى " هوبر العمليقى " ، بمكانة كبيرة فى المجتمع التدمرى .

وكان " أذينة " يطمع فى الاستقلال بتدمر ، وتلقيبه بلقب " ملك " ، وقد نجح فيما انتواه ، وأصبح ملكاً على " تدمر " عام ٢٥٠م، وعندئذ فطن الرومان لخطورة هذا الملك الذى يحاول التوسع ، فتآمروا عليه وقتلوه ، ليتولى من بعده ابنه " سبتميوس " رئاسة الناتو ، ولما مات ولده خلفه أخوه " أذينة الثانى " فى إدارة شؤون " تدمر " ، وكان " أذينة " هذا فارساً ممتازاً ، ومحارباً جريئاً ، وكان يحمل درجة " قنصل " فى عهد الأمبراطور فالريانوس .

طالب " أذينة " الإمبراطور بالانتقام لمقتل أبيه من قاتله " روفينوس " ، ولكن الأمبراطور " فالريانوس" لم يستجب لهذا المطلب، فغضب " أذينة "، وانتظر الفرصة للثأر ، وقد واتته الفرصة عندما وقع الصدام بين الفرس بقيادة " شابور الأول بن أردشير " (٢٤١-٢٧٢م) ، والرومان بقيادة " فالريانوس " فى موقعة بالقرب من " الرها " ، وقد أسر فيها " فالريانوس " ، كما أسر من الرومان سبعون ألفاً وذلك عام ٢٦٠م .

وما إن تنامت الأخبار " لأذينة " حتى حاول كسب ود ملك الفرس ، فأرسل رسله إلى " شابور " بكتاب فحواه التودد والموادعة ، ويبدوا أن " شابور " غره النصر ، فاستهان بالكتاب وبالموقف ، وأساء استقبال رسل " أذينة "، وأمر بإلقاء هداياه فى النهر ، بالإضافة إلى ذلك توعد " أذينة " بالعقاب الشديد على جسارته فى مخاطبته .

وبالطبع كل هذه الأعمال أثارت " أذينة " ، فجمع فرسان تدمر بقيادة " زبدا " كبير قواده ، " وزباى " رئيس القواسين ورماة السهام ، وانضم إليه فلول

جيش " فالريانوس " الروماني ، وزحف " أذينة " ومن معه إلى " طيسفون " ، واصطدم مع جيش شابور في معركة عنيفة على ضفاف نهر الفرات انتهت بهزيمة " شابور " هزيمة نكراء ، وتتبع " أذينة " فلول المنهزمين حتى أسوار عاصمتهم ، لكنه لم يستطع تخليص " فالريانوس " من الأسر .

ولقد كوفيئ أذينة على هذا الجهد من الإمبراطور الروماني الجديد " جالينيوس بن فالريانوس " ، فأنعم عليه بلقب قائد عام على جميع جيوش الشرق Dux Orientis عام ٢٦٢م ، وبدأ "أذينة" بناءاً على هذا النصر يسترجع أراضي الإمبراطورية من الفرس ، فهاجم شابور في طيسفون ، ونجح في استرداد البلاد الشرقية .

ومما لاشك فيه أن هذه الانتصارات كان لها أثرها العميق في نفس الإمبراطور الذي كافأه على إخلاصه للمرة الثانية عام ٢٦٤م بمنحه لقب " إمبراطور على جميع بلاد الشرق " Imperator Totius Orient's ، ولم يكتف "أذينة" بما ناله من تكريم ، فلقب نفسه بلقب "ملك الملوك" ، فضلاً عن قيام مجلس الشيوخ الروماني بمنحه لقب " أغسطس "، وهو لقب أباطرة الرومان .

لم ينسى " أذينة " إهانة " شابور " الفارسي له ، فعزم على مواصلة الحرب ضد الفرس ، فترك " سبتميوس وورود " نائباً له على " تدمر " ، واصطحب معه ابنه " سبتميوس هيرودس " لمحاربة الفرس ، وحاصر " أذينة " وولده " طيسفون " فترة من الزمن ، لكنهما اضطرا إلى العودة إلى الشام لمواجهة خطر " القوط " الذين هاجموا ميناء " هرقلية "، واتجهوا نحو " كبادوكيا "، وما أن علم القوط بعودة أذينة حتى بادروا بترك هرقلية عائدين إلى بلادهم .

وفى تلك الأثناء التى وصل فيها " أذينة " إلى قمة المجد نراه يذهب ضحية الخيانة إذ قتله " معنيوس " ابن أخيه " حيران " كما قتل معه ولده " هيرودس " وذلك عام ٢٦٦-٢٦٧م .

وكان لأذينة من زوجته الثانية " زينوبيا " ثلاثة أبناء هم : وهب اللات وأسمه " اثينودورس Athenodorus وحيران وأسمه " هيرينيانوس " وتيم اللات وأسمه " تيمولاوس " ، فانتقل ملك تدمر بعد أذينة إلى ولده القاصر " وهب اللات" فتولت " زينوبيا " الوصاية عليه ، وتعتبر شخصية " زينوبيا " من الأهمية بمكان فى تاريخ الشرق الأدنى القديم ، إذ كانت تطمح فى تكوين إمبراطورية كبرى ، وكانت تتصف بالشجاعة والجرأة ، وبالرغم من الشك فى كونها رومية إلا أنها كانت عربية وترتفع فى نسبها إلى بقايا العماليق .

من تاريخ " زينوبيا " :

يذكر أنه عندما سيطرت على مقاليد الأمور عزمت على غزو " جزيمة الأبرش"، وهو أول من ملك العرب النازلين بين الحيرة والأنبار فى بادية العراق، وكان قد قتل أباها " عمرو بن ظرب "، فأثنتها أختها عن قصده ، وطالبتها باصطناعه بالدهاء ، فكتبت إليه تدعوه لملكها ، ووصل بلاده ببلادها ، وما أن وصله ذلك حتى طمع فى توسيع دائرة ملكه ونفوذه ، فأقبل إليها ، وما أن التقت به حتى تخلصت منه ، وعندئذ انتقم منها " عمرو بن عدى " ابن أخت جزيمة الأبرش ؛ إذ سير إليها رجلاً يقال له " قصير بن سعد اللخمى " ، فتحايل على قتلها ، ونجح قصير فى دخول تدمر بجنود الحيرة ، فاضطرت " زينوبيا " إلى امتصاص خاتمها المسموم فقتلت نفسها .

وإن كانت تلك الرواية اختلطت بعنصر الخرافة ، فإن المصادر اليونانية واللاتينية والعربية قد أجمعت على أن " زينوبيا " كانت على قدر كبير من الذكاء وسعة الحيلة ، وأنها كانت بارعة فى إدارة شئون بلادها ، وكان أذينة قد ترك لها ملكاً ممهداً ، وجيشاً قوياً على رأسه قائدان من أعظم قواده هما " زبدا " قائد الخيالة الأكبر " وزبادى " قائد خيالة تدمر .

الدكتور "جواد على" ، المرجع السابق ، جـ٣ ، ص١٠٢ .

وأشارت بعض الروايات إلى أن " زينوبيا " كانت تدعى نسبها إلى مصر ، وقرابتها " لكليوباترا " ملكة مصر ، وأنها لذلك كانت تجيد التخاطب باللغة المصرية ، كما أنها صنفت كتاباً عن تاريخ مصر ، لكن المرجح أنها من أصل عربى من سلالة العماليق ، والسبب وراء اختلاف الروايات فى أصلها ، إجادتها لعدد من اللغات التى كانت تتحدث بها ، إذ كانت تعرف " الآرامية ، والإغريقية ، واللاتينية ، والمصرية .

ويفسر البعض إدعائها بأنها من سلالة ملوك مصر على أنها كانت بدوية بعيدة عن الحضارة والعمران ، فأرادت أن تكسب ود المصريين ، وأن تقترب فى نفس الوقت من الرومان ، فيسهل عليها حينئذ تحقيق مشروعها الكبير الذى رسمته لنفسها بالاستيلاء على مصر ، ومع ذلك فإنها باعتبارها زوجة أذينة ملك الملوك ، وإمبراطور الشرق كانت تعتز بانتسابها إلى عرب " تدمر "، والمسألة إذن لا تعدو فى نظر بعض المؤرخين سوى مظهر من مظاهر التنافس على الشهرة بينها وبين " كليوباترا " ملكة مصر التى كانت شهرتها تغطى الآفاق .

حاولت " زينوبيا " توسيع مناطق نفوذها ، وقد اختارت وقتاً مناسباً لذلك حينما دب الضعف فى كيان الإمبراطورية الرومانية بعد أن استنفذت طاقتها فى حرب الساسانيين لكن روما لم تكن غافلة عما يحدث ، فرأى الإمبراطور " جالنيوس " أن يبدأ بمهاجمتها فى عقر دارها قبل أن تبدأ هى بالهجوم ، فتظاهر بإرسال جيوشه لمحاربة الفرس ، ووجهها لسورية لمهاجمة تدمر ، لكن " زينوبيا " انتصرت على هذا الجيش وتمكنت قواتها من قتل " هرقليانوس " قائد الجيش الرومانى ، وأخذت " زينوبيا " بعد ذلك ترقب الأحداث فى روما ورد فعلها ، فلما بلغها مصرع الإمبراطور " جالينوس " عام ٢٦٨م وانتقال الحكم " لأوريليوس كلوديوس " ، وارتباك الحالة فى روما بسبب غزوات الألمان والقوط ، وخروج " بروبوس " حاكم مصر من قِبَلْ الرومان فى أسطوله لمطاردة القراصنة ، سيرت جيشاً كثيفاً يصل إلى سبعون ألف مقاتل إلى مصر .

قاتل الرومان قتالاً عنيفاً بقيادة " بروبوس " الذى عاد إلى مصر ، لكنهم انهزموا فى النهاية ، وآلت مصر إلى " زينوبيا " ، ويبدو أن " زينوبيا " قد اتفقت مع روما على بقاء جيوش تدمر فى مصر نظير اعتراف تدمر بسيادة الرومان على مصر ، وقد وجدت عملة تدمرية ضربت فى الإسكندرية عام ٢٧٠م نقش عليها " صورة وهب اللات " إلى جانب صورة وجه " أورليانوس " والجمع بين الصورتين يدل على أن وهب اللات أصبح يحكم مصر من قبل الإمبراطور الرومانى .

وفى نفس الوقت تمكنت " زينوبيا " من بسط نفوذها على آسية الصغرى ، وأخذت تحصن حدودها مع الفرس ، فأقامت مدينة على نهر الفرات عرفت باسم زينوبيا .

الصراع مع الإمبراطورية الرومانية :

يبدو أن سياسة " زينوبيا " التوسعية قد أقلقت بال الإمبراطور " أورليانوس " ، فاعتزم وضع خطة للحد من نفوذ " زينوبيا " ، والعمل على تأديبها ، ولقد ترامت الأخبار إلى مسامع " زينوبيا " ، فازدادت عناداً ، وأظهرت التحدى ، ولعل مظاهر ذلك ضربها للعملة بالإسكندرية دون نقش يمثل صورة " أورليانوس " ، كما أقام قائداها (زبدا ، وزبادى) تمثالاً " لأذينة " ، ولقبوه بملك الملوك ، وبذلك أظهرت " تدمر " العداء السافر " لرومة " .

كان لابد عندئذ أن ترد " رومة " على هذه المواقف ، ففى عام ٢٧١م وجهت " رومة " أولى ضرباتها " لتدمر " ، وتمكن الجيش الرومانى من إلحاق الهزيمة بجيش تدمر فى مصر ، وفى نفس الوقت كانت جيوش الرومان تجتاح آسيا الصغرى وتدخل سورية ، وحاولت عبثاً جيوش " تدمر " أن توقف تقدم الجيش الرومانى فى سورية ، لكنها أخفقت عند " انطاكية " وتراجعت إلى " حمص " التى كانت بها الهزيمة الثانية لجيش " تدمر " ، وبذلك أصبح الطريق أمام الجيش الرومانى إلى " تدمر " مفتوحاً ، وحاصر " أورليانوس " تدمر التى تركزت فيها القوة الرئيسية " لزينوبيا " ، وكانت " زينوبيا " تأمل أن يساعدها الفرس والأرمن فى صراعها مع الرومان ، لكن الفرس كانوا مشغولين بأمور داخلية عقب وفاة " سابور الأول " عام ٢٧١م ، وولاية " هرمز " وعزله بعد عام ، حتى أن " زينوبيا " قررت الذهاب بنفسها إلى الفرس تستمدهم على الرومان ، ودبرت خطة للذهاب بحيث لا يشعر بها " الرومان " ، وبالفعل وصلت إلى ضفاف الفرات ، وعندئذ أحاط بها الرومان قبل أن تركب زورقاً إلى الضفة الشرقية من النهر وقبضوا عليها .

ولقد فتّ هذا الموقف من عضد المدافعين عن " تدمر " ففتحوا أبواب مدينتهم للرومان فى طليعة عام ٢٧٣م ، ودخلها أورليانوس دخول الظافرين ، فعفا عن أهلها باستثناء بعض خاصّة الملكة الأسيرة وبعض القواد فقتلهم ، بينما أبقى على الملكة وابنها " وهب اللات " حتى يعود الإمبراطور إلى رومة .

مضى أورليانوس فى طريقه إلى رومة ، وعندما وصل إلى " تراقية " وصلته أخبار عن قيام أهل تدمر بالثورة على الحامية الرومانية ، وتنصيب " أنطيونوس " ملكاً عليهم ، كما قام أهل مصر بزعامة " فيرموس " بالثورة على الرومان ، وعندئذ أسرع أورليانوس بالعودة إلى " تدمر " وباغت الثوار بها وتمكن من دخولها دون مقاومة ، وأباح " أورليانوس " لجنوده تخريب المدينة وقتل سكانها ، فهدموا أسوارها وقلاعها وسائر أبنيتها ، وبالرغم من أنه عدل من سياسته العنيفة تلك إلا أن المدينة لم تعد إلى ما كانت عليها قبل الاجتياح الرومانى .

وأخذت منذ ذلك الحين تتوارى عن المسرح السياسى والحضارى ، فلم تعد فى عهد " دقلديانوس " سوى قرية صغيرة ، وحصناً أساسياً لسورية ، وقد أقام " دقلديانوس " بها معسكراً للرومان فى الحى الغربى ، وذلك بعد عقده للصلح مع الفرس ، وقد أجرت البعثة البولونية حفريات أثرية منذ عام ١٩٥٦م فى موضع هذا المعسكر الرومانى تحت إشراف " كازيميرز ميخالوفسكى " .

وفى عصر الإمبراطور " جستنيان " أصبحت " تدمر " على خط الحدود الداخلية للإمبراطورية ، وقد زارها الإمبراطور فى عام ٥٢٧م ، وزودها بجسر للمياه ، وبنى بها سوراً ماتزال بقاياه واضحة .

هذا نزر يسير عن الجانب السياسى لتدمر ، وسوف نلقى ظلالاً على حضارتها .

حضارة تدمر وآثارها :

يرجع الإزدهار الحضاري " لتدمر " إلى القرن الأول الميلادى ، وذلك بسبب موقعها الجغرافى المتميز فى مفترق الطرق الصحراوية ، التى كانت تربطها " بالبتراء " ، وبالتالى " بعدن " عن طريق " البتراء " ، كما كانت تربطها بموانئ الساحل السورى ، وخاصة ثغر " غزة " .

أيضاً كانت " تدمر " على اتصال مباشر بثغر " جرهة " Gerrhael الواقع على الخليج العربى ؛ حيث كانت ترسو الأساطيل التجارية القادمة من الهند ، وتفرغ بضائعها ، وعندئذ تقوم القوافل التدميرية بحمل هذه البضائع إلى بلدة " دورا أوروبس " الواقعة على الحدود الخارجية لمملكة تدمر .

ومن " دورا " كانت البضائع تصل إلى إنطاكية وطرابلس ودمشق ، وعلى هذا النحو كانت تدمر تتحكم فى هذه الشبكة من الطرق التى تربط السواحل السورية بآسيا والهند ، ولتجارتها مع الشرق أصبحت تدمر تنافس الإسكندرية ، وعن طريق " جرهة " كانت تصل إلى تدمر المنسوجات الحريرية ، والجواهر ، واللآلئ ، والطيوب ، والبخور من الهند والصين وغيرها .

ولقد كانت حضارة تدمر خليطاً من عناصر سورية ، ويونانية وفارسية ، على الرغم من كونها عربية ، وكانت لغة التخاطب والكتابة عندهم لهجة من الآرامية الغربية ، وتنتمى إلى نفس المجموعة التى تندرج فيها النبطية ، على أن اللغة اليونانية كانت سائدة فى تدمر إلى جانب اللغة الآرامية ، ولم تخلو النقوش التى عثر عليها فى إقليم تدمر من كلمات عربية أصيلة .

أما العبادة عند التدمريين ، فقد كان الدين فى " تدمر " لا يختلف عن المعتقدات الشائعة فى سورية الشمالية وعند قبائل العرب فى البادية ، وكانت

الأصنام التى وردت أسماؤها فى الكتابات التدمرية أصنام بعضها كان معروفاً عند العرب ، والآخر آرامى ، ولعل الإلهة " شمس " ، وبل أو بعل ، ويرح بول، ووالت أى اللات ، ورحم أى رحيم ، وأشتر أى عشتار ، وعزيزو أى عزيز ، وبعل سمين أى بعل السماء ، كانت أبرز المعبودات لدى التدمريين وإن كانت الإلهة " شمس " هى المتقدمة على هذه المعبودات ، وتليها مرتبة اللات .

من آثار تدمر :

من الآثار التى يمكن ذكرها تماثيل للنساء والرجال ذات حسن وإعجاب ، لذلك قال أبى الحسن العجلى فى اثنين منها .

أرى بتدمر تمثالين زانهما
تأنق الصانع المستغرق الفطن
هما اللتان يروق العين حسنهما
تستعطفان قلوب الخلق بالفتن

وكان يشق تدمر طريق فسيح يشكل محور المدينة الرئيسى ، يبلغ طوله حوالى ١٠٧٠م ، ويعرف بطريق الأعمدة ، إذ كان يحف به على اليمين واليسار صفان من الأعمدة الضخمة كان عددها حوالى ٣٧٥ عموداً ، ولم يتبق منها اليوم سوى ١٥٠ عموداً تيجانها كورنثية ، وبعض الأعمدة من الحجر الجيرى ، وبعضها من الجرانيت ، وكانت الأعمدة ترتبط من أعلاها فيما بينها بواسطة إفريز متد ل على النظام اليونانى ، وينتهى هذا الطريق قرب معبد " بعل " بقوس للنصر .

ومن أثار تدمر أيضاً معبد " بعل شمين " وآثار حمامات ، ودور خاصة مبلطة بالفسيفساء والرخام ، وأعمدة تذكارية وآثار قصر " زينوبيا " ، وهو بناء ضخم تتقدمه حنية ، ويشكل هذا القصر بتيجانه الكورنثية الغنية بالزخارف ، وعضاداته ، وواجهاته المخرمة بالزخارف معجزة فى فن النحت .

كذلك تبقت فى " تدمر " آثار مقابرها ، وبعضها على شكل أبراج مربعة الشكل ، تشتمل فى الداخل على غرف لدفن الموتى ، وبعضها على شكل بيوت ذات غرفة واحدة مزينة بالنقوش وأنواع الزخرفة ، كذلك وجدت آثار قنوات كانت محفورة فى باطن الأرض وبقايا أحواض وخزانات فى ظاهر المدينة .

(جـ) دولة الغساسنة :

ينسب الغساسنة إلى قبيلة " الأزد " اليمنية ، وقد نزحوا تحت قيادة زعيمهم " عمرو بن عامر مزيقياء " من جنوب جزيرة العرب إلى بادية الشام قبل أو بعد حادثة سيل العرم ، ويرى النسابون العرب أن " الأزد " لم يرحلوا إلى الشام مباشرة ، وإنما بقوا بعض الوقت فى أراضى " تهامة " بين بلاد الأشعريين " وعك " ، على ماء يقال له " غسان " فنسبوا إليه .

ويفسر " المسعودى " هذه التسمية فى مروجه فيقول : وإنما غسان ماء شربوا منه ، فسموا بذلك ، وهو ما بين زبيد ورمح - وادى الأشعريين بأرض اليمن - ويدعم كلامه ببيت من الشعر لحسان بن ثابت الذى قال :

أما سألت فإنا معشراً نجب

الأزد نسبتنا والماء غسان

المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جـ٢ ، ص١٠٦-١٠٧ .

فالغساسنة إذن ينسبون إلى آل " عمرو " المعروف " بمزيقياء " وعمرو هذا هو ابن عامر بن ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس البطريق بن ثعلبة بن مازن ابن الأزد بن الغوث .

ويفسر الإخباريون تسمية " عمرو " بمزيقياء تفسيرين ؛ الأول غير مقبول وهو : أنه كان يمزق كل يوم حلتين لئلا يلبسهما غيره ، وذلك من باب الثراء ، والثاني مقبول ؛ وهو أن الأزد كانت قد تمزقت على عهده كل ممزق بعد حادثة سيل العرم ، فاتخذت العرب افتراق الأزد عن أرض سبأ مثلاً يضرب ، وهذا التفسير قد اعتمد على ما جاء فى الآية القرآنية التاسعة عشرة من سورة سبأ ، إذ قال تعالى : " **فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا ، وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ، إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور** " .

هذا وقد أقام الغساسنة بعد ذهابهم إلى أرض الشام بين " الجولان واليرموك " على مقربة من دمشق بموضع على نهر " بردى " يعرف " بجلق "، وكانت الجولان قاعدة ملكهم ، ومدينة " الجابية " مركزاً لحكمهم .

أبرز أمراء الغساسنة :

أما عن أبرز أمراء الغساسنة ، فقد ذكرت بعض المصادر التاريخية عدداً من الأسماء مثل : جفنة بن عمرو مزيقياء ، والحارث بن عمرو بن عامر ، والحارث بن جبلة ، والمنذر الأكبر ، والمنذر الأصغر ابني الحارث ، وجبلة بن الأيهم .

ولعل " الحارث بن جبلة " هو أبرز أمراء الغساسنة على الإطلاق ، وقد حكم من عام ٥٢٩ حتى ٥٦٩ ميلادية ، ويذكر أنه كان نصرانياً على المذهب

" المونوفيزيتي " مذهب الطبيعة الواحدة ، وكان موالياً للدولة البيزنطية ، وكانت دولته بمثابة الدولة الحاجزة ، تتحطم عليها هجمات البدو قبل أن يصل تأثيرها إلى الدولة البيزنطية ، ولقد دخل " الحارث " هذا في صراع كبير مع دولة الحيرة " الدولة العربية الحاجزة هي الأخرى على تخوم الفرس " من هجمات البدو ، ومن هجمات البيزنطيين ، وذلك في عهد ملكها " المنذر بن ماء السماء " ، وذلك في أبريل عام ٥٢٨م ، وانتهى الصراع بانتصار " الحارث بن جبلة " ، وعرف ذلك اليوم بيوم حليمة .

ومما يذكر أن " الحارث بن جبلة " كان معاصراً للإمبراطور البيزنطي " جستنيان " (٥٢٧-٥٦٥م) ، كما كان معاصراً لملكين من ملوك الفرس هما : كسرى قباذ (٤٤٨-٥٣١م) ، وكسرى أنوشروان (٥٣١-٥٣٩م) .

ويذكر المؤرخ " بروكوبيوس " أن " جستنيان " منح " الحارث " المذكور لقب " ملك " ، نظير جهوده في خدمة الإمبراطورية ، وهذا اللقب لم يكن من السهل منحه لأحد من عمال العرب في سورية من قبل، وبالتالي بسط " الحارث " سلطته على العديد من القبائل العربية بالمنطقة .

ومما يذكر أن لقب " ملك " الذي منح " للحارث " فيه وجهة نظر ، إذ أن الآثار أوضحت أنه كان يلقب " بالبطريق " أو شيخ القبيلة ، وهذا أمر مقبول لأن لقب ملك كان يلقب به الإمبراطور أو القيصر نفسه دون غيره .

ومما يذكر من تاريخ " الحارث " أنه اشترك في عدد من الحملات التي قادها البيزنطيون ضد الفرس كحملة " بلزاريوس " مثلاً ، لكنه دخل في معارك متعددة ضد المناذرة ، تارة تنتهي لصالحهم ، وتارة أخرى تنتهي لصالحه ، وقتل " المنذر بن ماء السماء " عام ٥٢٨م في إحدى هذه المعارك وعرف ذلك

اليوم بيوم حليمة ، كما هزم ابنه أيضاً فى معركة " عين أباغ " الذى كان بطلها المنذر بن الحارث .

ولا يفوتنا أن نقول أن " الحارث بن جبلة " قد رحل إلى القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية ، ليفاوض حكومتها حول من يخلفه من أبنائه بعد وفاته ، ويبدو أنه لم يلق ترحيباً فى هذه الزيارة رغم أنه حليفاً لبيزنطة ، وربما كان ذلك إن لم يكن قطعاً عائد لمذهبه " المونوفيزيتى " وحمايته للمونوفيزيتيين ، ووضح ذلك من سعيه لدى الإمبراطورة " ثيودورا " لتعيين " يعقوب السبرادعى " مؤسس الكنيسة السورية اليعقوبية ، ورفيقه " ثيودوس " أسقفين على المقاطعات العربية السورية ، وبذلك عمل على نشر المذهب " المونوفيزيتى " فى بلاده .

ومن بعده جاء ابنه " المنذر " بطل موقعة عين أباغ ، التى كانت ضد " المناذرة " فى عهد ملكهم " عمرو بن المنذر ، والذين هزموا هزيمة نكراء على أيدى الغساسنة .

وأما أخر أمراء الغساسنة فهو " جبلة بن الأيهم " الذى جاء " عمر بن الخطاب "رضي الله عنه فعرض عليه "عمر" الإسلام ، وأداء الصدقة ، فأبى وقال : أقيم على دينى وأؤدى الصدقة ، وعندئذ قال له "عمر بن الخطاب"رضي الله عنه : ما عندنا لك إلا واحدة من ثلاث ؛ إما الإسلام ، وإما الجزية ، وإما أن تذهب إلى حيث شئت.

ولو دققنا النظر فى هذه الكلمات لتبينا فيها فراسة " عمر بن الخطاب " لأن جبلة هذا أسلم ثم ارتد عن إسلامه ، وبالطبع لضعف إيمانه . كما توقع " عمر " ، ويذكر عن سبب الارتداء أنه وطيئ ذات مرة رجلاً بفرسه فى دمشق ، فوثب عليه ذلك الرجل ولطمه ، وعندئذ أخذه الغساسنة إلى " أبى عبيدة عامر بن الجراح " ، وقالوا له : إن هذا الرجل لطم سيدنا .

وعند ذلك قال أبو عبيدة البينة على ما تقولون ، فقال الحارث ، وما تصنع بالبينة ، قال أبو عبيدة : إن كان لطمك فقد لطمته من قبل . فقال أو لا يقتل، قال : لا، قال أو لم تقطع يده، قال : لا ، إنما أمر الله بالقصاص فهى لطمة بلطمة فخرج "جبلةِ بن الأيهم" مرتداً ولحق بأرض البيزنطيين وظل بها حتى وفاته .

وتلك صورة تؤكد تماماً فراسة " عمر بن الخطاب "رضي الله عنه وأرضاه ، كما توضح ضعف إيمان جبلة الذى سرعان ما ارتد ، وعلى جانب آخر توضح عدل الإسلام فى كلام أبى عبيدة عامر بن الجراح .

حضارة الغساسنة :

كان للغساسنة حضارة مزدهرة تأثرت إلى حد كبير بالحضارتين الساسانية والبيزنطية ، وحضارتهم بهذا تشبه الحضارة الأموية التى أخذت من الحضارتين الساسانية والبيزنطية أيضاً ، ولعل ذلك من الأسباب التى أدت إلى ارتباك علماء الآثار فى نسبة بعض الآثار العربية ببادية الشام مثل (قصر المشتى، وقصر الطوبة) تارة إلى العصر الأموى ، وتارة إلى الغساسنة .

وقد اشتغل الغساسنة بالزراعة مستغلين مياه حوران فى ذلك ، فعمرت القرى والضياع حتى بلغت ثلاثين قرية أو يزيد ، غير أن اهتمام الأمراء الغساسنة بالبناء كان أعظم ، إذ أقاموا القصور والقناطر والأبراج وغيرها .

ومن أشهر أبنيتهم (قصر المشتى ، وقلعة القسطل وغير ذلك من الأبنية التى اتسمت بالتأثر الساسانى والبيزنطى .

ولقد أفادتنا أشعار حسان بن النعمان والنابغة الذبياني في وصف حياة الغساسنة في السلم وفي الحرب ، وها هو " حسان بن ثابت " يصف لنا مجلساً من مجالس " جبلة بن الأيهم " أيام كان أميراً على الغساسنة فيقول : " لقد رأيت عشر قيان ؛ خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط ، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة ، أهداهن إليه إياس بن قبيصة ، وكان يفد إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها ، وكان إذا جلس للشراب فرش تحته الآس والياسمين ، وأصناف الرياحين ، وضرب له العنبر والمسك في صحاف الفضة والذهب ، وأتى بالمسك الصحيح في صحاف الفضة ، وأوقد له العود المندى إن كان شاتياً ، وإن كان صائفاً بطن بالثلج ، وأتى هو وأصحابه بكساء صيفية ينفصل هو وأصحابه بها في الصيف ، وفي الشتاء الفراء الفنك وما أشبهه ، ولا والله ما جلست معه يوماً قط إلا خلع عليّ ثيابه التي عليه في ذلك اليوم ، وعلى غيري من جلسائه ، هذا مع حلم عمن جهل وضحك وبذل من غير مسئلة ، مع حسن وجه وحسن حديث".

راجع : أبو الفرج الأصفهاني ، كتاب الأغاني ، جـ ١٦ ، بيروت ، ١٩٥٦م ، ص ٢٦ .

وهكذا ألمحنا باقتضاب شديد إلى الحياتين السياسية والحضارية في دولة الغساسنة ، لننتقل إلى الحديث عن دولة المناذرة .

(د) دولة المناذرة فى الحيرة والأنبار :

تنسب هذه الدولة إلى قبائل " تنوخ " العربية الجنوبية التى رحلت من اليمن على أثر إنهيار سد مأرب ، واتجهت فى أول أمرها إلى منطقة البحرين ، ثم زحفت صوب جنوب العراق مستغلة الحرب الأهلية التى نشبت فى بلاد الفرس أواخر عصر الدولة " البارثية " ، وتطاحن أمرائها فيما بينهم ، بعد ذلك استقرت هذه القبائل فى منطقة الحيرة والأنبار .

الحيرة :

الحيرة مدينة قديمة البنيان ، تاريخ إنشائها مجهول ، وأقدم كتابة تضمنت اسم " الحيرة "، كانت فى نص يرجع تاريخه إلى عام ١٣٢م وكتبت " حيرتا " ، ويستدل من هذا النص أن الحيرة أقيمت فى عصر سابق للعصر الساسانى ، وبعض الإخباريين يرجعون إنشاءها إلى بختنصر، وقيل إنها من بناء تبع الأكبر.

الأنبار :

أما " الأنبار " التى هاجر إليها عرب " تنوخ " ، فهى مدينة قديمة ، تبين من دراسة آثارها أنها من المواقع السابقة على عصر الدولة الساسانية ، وقد ازدهرت وعمرت فى عصر شابور الثانى (٣١٠-٣٧٩) ، الذى حصنها بالقلاع والأسوار لكى تسهم فى مقاومة غارات الروم على بلاده ، وقام إلى الجنوب منها بحفر نهر يصل الفرات بدجلة عرف باسم Naar Sares أى نهر عيسى ، ولقد اكتسبت " الأنبار " بفضل هذا النهر أهمية عظمى ، إذ أصبحت مركزاً تجارياً هاماً ومخزناً للأموال ، واسم الأنبار قديماً كان Ham-bar بمعنى المخزن ، وبالطبع هذا تأكيد لشهرتها التجارية .

ومن الثابت تاريخياً أن إمارة الحيرة (المناذرة) ترجع فى بدايتها إلى القرن الثالث الميلادى ، وقد استمرت حتى ظهور الإسلام ، وكانت فى علاقتها بالفرس كعلاقة دولة الغساسنة بالبيزنطيين ، إذ استعان الفرس بهم فى حربهم ضد الدولة البيزنطية ، هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية ضد هجمات البدو المتكررة .

أشهر أمراء المناذرة :

١ - *امرئ القيس ٢٨٨-٣٢٨م :*

هو " ابن عمرو بن عدى " من " مارية بنت عمر " أخت " كعب بن عمرو الأزدى " وهو أول من تنصر من ملوك آل نصر بن ربيعة وعمال ملوك الفرس ، ويذكر بعض الإخباريين أنه حكم مدة طويلة ولعلها مبالغ فيها ، بينما اليعقوبى يقول بأنه حكم حوالى ٣٥ خمس وثلاثون عاماً .

ويبدو أن مُلك " امرئ القيس " كان عظيماً ، وأنه كان من عمال " سابور " على عدد من القبائل العربية ، ونقش " النمارة " بجبل حوران يتضمن ذلك وهو بتاريخ ٣٢٨م سنة وفاة امرئ القيس . ويستدل من النقش أن امرئ القيس كان محارباً عظيماً تمكن من اخضاع بعض القبائل العربية ، ولعل وجود قبره فى النمارة فى إقليم رومانى لدليل على اعتراف الرومان بسلطان امرئ القيس .

٢ - *النعمان الأول بن امرئ القيس (٣٩٠-٤١٨م) :*

هو " ابن امرئ القيس "، وقد حظى بشهرة كبيرة بين ملوك الحيرة ، فهو النعمان الأعور ، والسائح ؛ لأنه زهد فى الدنيا آخر حياته ، وتخلى عن الملك ولبس المسوح وساح فى الأرض ، وذلك بعد ٢٩ سنة وأربعة أشهر من حكمه على رواية " الطبرى " نقلاً عن هشام ابن الكلبى .

وهو أيضاً صاحب " الخورنق والسرير " ، وبذلك نال النعمان بن امرئ القيس من الشهرة الكثير والكثير .

ويبدو أن " النعمان الأول " كان جديراً بهذه الشهرة التى لم ينلها أحدُ قبله ولا بعده فى دولته، إذ وصفه الإخباريون بالصرامة والحزم وضبط أمور مملكته، وأنه اجتمع له من الأموال والاتباع والرقيق ما لم يملكه أحد من ملوك الحيرة ، وكان من أشد ملوك العرب نكاية بالأعداء ، غزا الشام مراراً وتكراراً ، وسبى وغنم الكثير ، وفيما يختص بقوته العسكرية قيل إن ملك الفرس جعل معه كتيبتين إحداهما " دوسر " ، والأخرى " الشهباء " ، وكانت الأولى لتنوخ ، والأخرى للفرس ، فكانت القبيلتان عضده فى صراعاته المتكررة لاسيما مع الشام .

وذكر أن جيشه كان يتكون من خمس كتائب هى " الأشاهب" أى البيض ، والقبيلة التى تعرف بدوسر ، والرهائن ، والصنائع ، والوضائع .

والوضائع : كانوا ألف رجل من الفرس فى الحيرة نجدة لملوك العرب .

والصنائع : هم "بنو قيس وبنو تيم اللات"، وكانوا خواص الملك لا يبرحون بابه .

وأما الرهائن : فكانوا خمسمائة رجل رهائن لقبائل العرب يقيمون على باب الملك سنة ، ثم يحل محلهم خمسمائة آخرون فى فصل الربيع .

وكما اهتم " النعمان " بالجيش اهتم أيضاً بالتعمير والبناء ، وإليه ينسب قصر "الخورنق "، وكذلك قصر "السرير"، ويذكر أن سبب بناء قصر " الخورنق " أن الملك الفارسى " يزدجرد " بحث لإبنه " بهرام " على مكان يكون متسماً بالنواحى الصحية حتى يحافظ على صحة ولده فدُل على طُهر "الحيرة"، فطلب من النعمان بناء هذا القصر لولده ، فبناه له ، وعلى ذلك ملكه على العرب ، ويذكر أن الذى بناه هو " سنمار " ، فلما فرغ من بنائه ، أظهر " سنمار " أنه قادر على

بناء ما هو أعظم منه يدور مع الشمس حيثما دارت إذا ما أوفوه أجره ، فقال له النعمان : " وإنك لتقدر على أن تبنى ما هو أفضل منه ثم لم تبنه " ثم إنه أمر به فطرح من رأس " الخورنق " فمات على الفور .

وفي رواية أخرى " لياقوت الحموى " أنه بعد بناء القصر صعد النعمان إلى رأسه ، ونظر إلى البحر تجاهه ، والبر خلفه ، فرأى الحوت ، والضب ، والظبى ، والنخل ، فقال : ما رأيت مثل هذا البناء قط ، فقال له " سنمار " إني أعلم موضع آجره لو زالت لسقط القصر كله ، فقال النعمان : أيعرفها أحد غيرك ، قال : لا ، قال : لا جرم لأدعنها وما يعرفها أحد ، ثم أمر به فقذف من أعلى القصر إلى أسفله فقتل ، وضرب به لذلك المثل .

وإن كانت المسيحية قد بدأت في الظهور فى أيامه ، إلا أن ما روى عن تنصره أمر يحتاج إلى تثبيت ، ويمكن القول بأنه ربما كان يتأهب لتقبل المسيحية، أو كان يظهر ميلاً تجاهها ، وأن رعاياه النصارى قد تمتعوا بقدر من الحرية .

٣- المنذر بن امرئ القيس " ابن ماء السماء " (٥١٢-٥٥٤م) :

هو " المنذر بن ماء السماء " كما يعرفه الإخباريون ، وماء السماء لقب أمه " مارية بنت عوف بن جشم ابن هلال بن ربيعة ... أبى قاسط "، وقد سميت بماء السماء لجمالها وحسنها ، وكان المنذر ملكاً هماماً كفء الشخصية ، أوقع الرعب فى أرض الروم وحاربهم مراراً وتكراراً ، فكان لزاماً على الملك الفارسى " قباذ " أن يستميله إلى جانبه ، لكنه بالطبع كان يخشى نفوذه وسلطانه ، وربما ما يمكن أن يطرأ من تقارب بينه وبين الروم .

ويذكر الدكتور " السيد عبد العزيز سالم " أن " المنذر " هذا كان محارباً شجاعاً ، قضى حياته فى غزو بلاد الروم والعرب ؛ ففى عام ٥١٩م أغار على بلاد الروم ، وتمكن فى بعض حروبه من أسر قائدين هما " ديموستراتوس ، ويوحنا " ، فأرسل إليه " جستين " ابراهام وشمعون وسرجيوس أسقف الرصافة عام ٥٢٤م للتفاوض من أجل إطلاق سراحهما ، وفى عام ٥٢٨م هاجم بلاد الروم مؤيداً للفرس ، وتوغل فى بلاد الشام وغنم مغانم كثيرة ، ثم عاود الغزو لبلاد الشام فى العام التالى ، وتوغل فى البلاد حتى حدود (انطاكية)، كذلك لم تنقطع الحروب بينه وبين أمراء الغساسنة حتى راح " المنذر " نفسه ضحية هذه الحروب فى موقعة يوم " حليمة " عام ٥٥٤م .

٤- *عمرو بن المنذر أو (عمرو بن هند) ٥٥٤-٥٧٤م :*

هو عمرو بن المنذر بن امرئ القيس ، وأمه هند بنت عمه امرئ القيس الشاعر ، ويذكر الإخباريون أن عمراً قضى حياته يحارب العرب والروم ، ويذكر أنه غزا " تميماً " فقتل منها كثيراً ، وفى عام ٥٦٣م أغار على بلاد الشام، وكان على عربها الحارث بن جبلة الغسانى ، ثم عهد لأخيه " قابوس " بمواصلة غزو ديار الغساسنة عامى ٥٦٦ ، ٥٦٧م . ومما يذكر أن عمرو بن المنذر قتل على يدى " عمرو بن مكتوم "، وقد أشار عمرو بن كلثوم إلى ذلك ببعض أبيات من الشعر .

٥- *المنذر بن المنذر (٥٧٩-٥٨٣م) :*

تولى ملك الحيرة أربع سنوات ، وكان له عشرة أولاد بخلاف النعمان ، وكانوا يسمون " الأشاهب " لجمالهم ، ويذكر أنه لما دنت ساعة وفاته أوصى

إياس بن قبيصة الطائى بأولاده ، وملكه على الحيرة إلى أن يرى كسرى هرمز رأيه ، فمكث إياس على الحيرة أشهراً .

ونستنتج من هذا أن سلطة أمراء اللخميين قد ضعفت ضعفاً واضحاً ، بحيث أصبح تنصيب أمراء الحيرة أمراً من صميم اختصاص الأكاسرة .

٦- *النعمان بن المنذر (٥٨٣-٦٠٥م) :*

هو النعمان أكبر أبناء المنذر من سلمى بنت وائل بن عطية الصائغ من أهل فدك ، تولى الحكم من قبل الفرس لضعف دولة الحيرة كما ألمحنا ، ومن أبرز أعماله ؛ غزوه لقرقيسياء ، ومواجهة بن غسان الذين أغاروا على بلاده عام ٦٠٠م ، لكنه فيما يبدو أنه كان غير موفق فى حروبه ضد العرب ؛ إذ نال هزيمة على يد بنى " يربوع " ، كما نال هزيمة أخرى على يد بنى عامر بن صعصعة ، وأُسر أخوه . لكنه من ناحية ثانية كان مشجعاً للأدب والشعر ففتح أبواب قصره لبعض الشعراء مثل : النابغة الذبيانى ، والمنخل البشكرى ، والمثقب العبدى ، والأسود بن يعفر ، وحاتم الطائى . وعرف النعمان بأنه صاحب النابغة .

٧- *إياس بن قبيصة الطائى (٦٠٥-٦٤٤م) :*

هو " إياس بن قبيصة بن أبى عفراء بن نعمان بن حية الطائى " عهد إليه كسرى بإمارة الحيرة بعد قتل " النعمان بن المنذر"، وكانت مدة حكمه حوالى تسع سنوات على رواية الطبرى ، وقد ساعد "إياس" كسرى فى صراعه ضد الرومان، ومن أبرز الحوادث التى وقعت فى أيامه حادثة يوم ذى قار .

يوم ذى قار وانتصار العرب :

لقد طالب " كسرى " ملك الفرس بتركه " النعمان "، فأخبره " إياس بن قبيصة " أنها وديعة عند " بكر بن وائل "، فأمره كسرى بإرجاعها إليه ، وكانت الودائع ما بين (أموال ودروع) وغير ذلك ، لكن "بكر بن وائل" امتنع عن تسليمها فتوتر الموقف وبدأت نذر الحرب بين الطرفين .

وعندئذ أرسل " كسرى " جيشاً من الفرس على رأسه "الهامرز التسترى" المرزبان الأعظم لكسرى ، وجيوشاً أخرى وأمر كسرى أن تجتمع الجيوش بقيادة " إياس بن قبيصة ". وهنا استعد " بكر بن وائل " وبالطبع عاونه العرب وبدأت الحرب واشتد وطيسها ، وانتهت لصالح العرب وهزم الفرس فى هذا اليوم هزيمة نكراء وعرف هذا اليوم بيوم ذى قار .

وعن هذا الانتصار قال رسول الله ﷺ هذا أول يوم انتصفت العرب فيه من العجم وبى نصروا ، ولقد تبارى كثير من الشعراء فى ذكر هذا الانتصار والثناء عليه وعن تاريخ الموقعة ، وقع جدل كبير لكن المعتقد أنها وقعت قريباً من عام ٦٠٩م أو عام ٦١٠م .

حضارة المناذرة :

أما عن حضارة المناذرة فقد بلغت شأواً عظيماً بسبب ازدهار الحياة العلمية نتيجة انتشار المدارس والمعاهد بها ، كما كان لموقعها الجغرافى بين العراق والشام أثر كبير فى نقل العديد من الثقافات إليها ، من فارسية ، وسريانية ويونانية ، فضلاً عن تشجيع ملوك الحيرة للشعر والشعراء ومنحهم العطايا والهبات .

ولم يكن التقدم الحضارى وقفاً على الناحية الأدبية فقط ، وإنما كان الطب يحتل مكانة متقدمة عند المناذرة ، كذلك لم تكن الحالة الاقتصادية أقل من الناحية العلمية تقدماً ، إذ اشتغل أهل الحيرة بالزراعة والرعى ، كما عملوا بالتجارة والصناعة ، كصناعة المنسوجات الحريرية والكتانية ، والصوفية ، وصناعة الأسلحة من سيوف وسهام ونصال للرماح ، كما اشتهروا بصناعة التحف المعدنية والحلى .

أما فن العمارة فأخذوه عن الفرس وطوروه ، واشتهر من ابنيتهم : قصر الخورنق ، والسرير ، والعديد من الأديرة ، والكنائس .

وأما ديانتهم فكانت إما وثنية يعبدون الأصنام ، أو صابئة ، يعبدون الكواكب ، أو مجوس يعبدون النار ، أو نصارى ، أو يهود . أى خليط من المعتقدات .

الحالة السياسيةفي جنوب الجزيرة العربية :

يمكن التمييز بين عدد من القوى السياسية التى نشأت فى جنوب الجزيرة العربية مثل: معين ، وسبأ ، وحمير وعنها نقول :

دولة معين (١٣٠٠-٦٣٠ ق.م)

كانت فى شمال " اليمن " بين حضرموت ونجران ، عاصمتها (قرنا) ، وقد امتد نشاطها التجارى حتى شمال الحجاز ، وظلت طوال القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد فى حالة ازدهار ونماء ، ثم أخذت فى الضعف والتدهور حتى استولت عليها دولة سبأ .

ومما يذكر أن نظام الحكم فى دولة معين كان ملكياً ، وكان بمدنها مجالس تدير شئونها تعرف باسم (مسود) على نحو دار الندوة فى مكة فى العصر الجاهلى .

دولة سبأ (٨٠٠-١١٥ ق.م)

اتخذت هذه الدولة مدينة " مأرب " عاصمة لها ، وتمتعت بنفوذ كبير ، وامتدت من ساحل الخليج العربى شرقاً حتى البحر الأحمر غرباً ، كما ورثت أملاك دولة " معين " كما قلنا .

وقد لعبت دولة سبأ دوراً مبرزاً فى النشاط التجارى ، حتى شمل التجارة مع (مصر وسورية وبابل) وغيرهم ، وكان لسبأ أسطول بحرى كبير ، فضلاً عن قوافلها التى كانت تخترق الصحراء حتى بلاد الشام .

ويرى بعض المؤرخين أن سبب زوال هذه الدولة يرجع إلى النزاع حول العرش من ناحية ، ومن ناحية أخرى إلى تصدع سد مأرب الذى كان بمثابة العمود الفقرى للزراعة بها ، والذى بدوره كان من قبل السبب الرئيسى فى رقى بلادهم وتقدمها .

دولة حمير (١١٥ ق.م — ٥٢٥م)

تقع أراضى هذه الدولة بين سبأ والبحر الأحمر ، وقد سيطر حكامها على مملكة سبأ السالفة الذكر ، واتخذوا من " ريدان " مقراً لحكمهم .

ويلاحظ أن هذه الدولة قد اختلفت عن سبأ فى اهتماماتها بالفتوح والتوسع، فازدادت لذلك أملاكها ، ويذكر أن ملوكها حاربوا الفرس والأحباش ، لكنها مع ذلك لم تبلغ نفس المكانة التى بلغتها " سبأ " من الرقى والحضارة والاستقرار .

ومما يذكر أن مملكة " حمير " تعرضت للضغط الاقتصادى والسياسى ، من جانب الدولة البيزنطية التى وجدت فى الحبشة حليفاً لها فيما تتطلع إليه .

ويذكر التاريخ أن الدولة الحميرية مرت بمرحلتين فى تاريخها ، الأولى من عام ١١٥ ق.م حتى ٣٠٠ ميلادية ، والثانية من ٣٠٠-٥٢٥ ميلادية ، ويعد (ذو نواس) من أشهر ملوكهم فى التاريخ ، وكان يحكم بلاد " نجران " التى كانت أكبر مركز تجمع للنصرانية ، بينما كان " ذا نواس " فيما ذهب إليه بعض الرواه أنه اعتنق اليهودية فى أواخر أيامه ، وعندئذ اضطهد المسيحيين ، وأحرقهم بالنار عام ٥٢٣ ميلادية ، وهى حادثة الأخدود الشهيرة والتى ذكرها القرآن الكريم .

ومن المرجح أن " ذا نواس " كان وثنياً خشى نفوذ الأحباش وأتباعهم فى نجران ، فقام بهذا العمل ، للضغط السياسى والاقتصادى ومحاولة من جانبه لضرب التحالف بين الحبشة ومسيحيوا نجران .

ولكن " ذا نواس " ألقى مصرعه فى المعركة التى نشبت بينه وبين الأحباش بقيادة (أرياط) ، وبمقتله بدأ عهد جديد من الصراعات بين الأحباش والفرس على النفوذ فى اليمن .

إذ استولى الأحباش على اليمن عام ٥٢٥م فى أيام ملكهم النجاشى ، وعاثوا فى الأرض فساداً ، وقادوا الحملات ضد البلاد وضد مكة المكرمة .

لكن أحد الوطنيين من اليمن ويدعى " سيف بن ذى يزن " أخذ على عاتقه طرد " الأحباش " من اليمن ، فسافر إلى الإمبراطور البيزنطى (جستين الثانى) وطلب نجدته ضد الأحباش ، ولما فشل فى مسعاه اتجه إلى الشرق حيث الفرس ، وبالفعل أجيب إلى طلبه ، وجاءت سفن الفرس إلى سواحل عدن محملة بالمقاتلين وعلى رأسهم (وهرز) ابن الكامجار الذى نجح فى هزيمة " مسروق بن ابرهة " وقتله ، ودخل وهرز صنعاء وضبط " اليمن "، وكتب إلى " كسرى" بالفتح .

وتوالى على اليمن كثير من الحكام والولاة الفرس ، وكان " باذان " آخرهم الذى عاش إلى عهد النبىﷺ ، وأسلم هو وقومه على أثر مادار بينه وبين النبى الكريم من مراسلات .

تعرضت اليمن بعد ذلك إلى التدهور فى أحوالها الاقتصادية ، والاضطراب فى سلطتها المركزية ، وبالتالى عمت الفوضى البلاد ، وظهرت حياة البداوة ثانية ، وعلى ضوء ذلك هاجر السكان إلى خارجها متجهين إلى الشمال حيث اختلطوا بقبائل شبه الجزيرة العربية ، فى مكة ويثرب ، فكانت قبيلة خزاعة فى مكة ، أما الأوس والخزرج فكانتا فى المدينة (يثرب) .

ثم واكب اليمنيون هجرتهم نحو الشمال فأقاموا دولتى (الغساسنة والمناذرة)، الأولى على تخوم البيزنطيين ، والثانية على تخوم الفرس .

وهكذا رأينا كيف قامت فى بلاد اليمن العديد من الدول التى لعبت دوراً مبرزاً فى تاريخ الجزيرة العربية كدولة (معين ، وسبأ ، وحمير) قبل ظهور الإسلام .

وسط الجزيرة العربية

أما وسط الجزيرة العربية فسوف نكتفى بالحديث القصير عن مكة قبل بدء الحديث عن السيرة النبوية العطرة .

مكة المكرمة

نبذة تاريخية عن :

نشأة مكة وتطورها - تنظيمات قريش لمدينة مكة (الوظائف المتعلقة بالبيت الحرام - إدارة مدينة مكة - العلاقات مع القبائل والدول المجاورة - رحلات التجارة) .

اشتقاق اسم مكة وتفسيرها :

اختلف الإخباريون فى اشتقاق كلمة مكة ، وذهبوا فى ذلك مذاهب شتى ، فأبو بكر 'الأنبارى يقول : " سميت مكة لأنها تملك الجبارين " ، وقال " الشرقى ابن القطامى ": إنما سميت مكة لأن العرب فى الجاهلية كانت تقول لا يتم حجنا حتى نأتى مكان الكعبة فنمك فيه أى نصفر صفير المكاء حول الكعبة ، والمكّاء بتشديد الكاف طائر يأوى الرياض .

وقال قوم سميت مكة لأنها بين جبلين مرتفعين عليها ، وهى فى هبطة بمنزلة المكوك .

وهناك تفسير لغوى تكون مكة على أساسه مشتقة من كلمة " أمتك " بمعنى جذبت ، حيث لما لها من مكانة مقدسة فقد امتكت الناس أى جذبتهم من جميع الأطراف .

وهناك روايات أخرى عديدة ومتناثرة يطول تناولها ، ولقد جاء ذكر مكة في جغرافية بطليموس تحت اسم ما كورابا Macoraba ويبدو أن هذا الاسم كان له علاقة بالبيت العتيق الذى كان سر شهرتها كعاصمة دينية فى الجاهلية .

تعدد أسماء مكة :

ولقد جاء فى القرآن الكريم اسم آخر لمكة هو بكة ، حيث قال جل وعلا فى سورة آل عمران الآية (٩٦ ، ٩٧) " **إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين** " .

وقد فسر الإخباريون بكة على أنها موضع البيت وما حوله أى مكة ، وأضاف الإخباريون أسماء عديدة لمكة منها : الغساسة ، والناسة ، والباسة ؛ لأنها تبس أى تحطم الملحدين ، ومنها : أم رحم ، وأم القرى . فقد قال عز من قائل " **لتنذر أم القرى ومن حولها** " سورة الأنعام آية (٩٢) ، ومنها الحاطمة؛ لأنها تحطم من استخف بها ، ومنها : " البيت العتيق " لأنه عتق من الجبابرة ، ومنها : الحرم ، والبلد الأمين ، وغير ذلك من الأسماء .

جغرافية مكة :

وعن جغرافية مكة فإن عمرانها يتخذ شكل هلال يميل إلى الاستطالة ، ويتجه جانباه نحو سفوح جبل قعيقعان ، وهى على هذا النحو تبدو وقد ضيقت عليها سلسلتان مزدوجتان من التلال ، فإلى الشرق يمتد جبل " أبو قبيس " ، وإلى

الغرب يحدها جبل قعيقعان ، ومكة تقوم فى بطن وادى يعـــرف ببطـــن مكـــة ، وتشرف عليها الجبال من جميع النواحى دائرة حول الكعبة .

تاريخ مكة قبيل ظهور الإسلام :

يزعم الإخباريون أن أقدم من حكم مكة والحجاز العمالقة ، وكان عليـــهم " السميدع بن هوبر بن لاوى " ، وخلفهم " بنو جرهم القحطانية " ، وكان إبراهيم عليه السلام قد أسكن ولده إسماعيل مكة مع أمه هاجر ، وبنى البيت العتيق بـــالحجر بمعاونة ابنه إسماعيل ، وتزوج حينذاك إسماعيل عليه السلام من امـــرأة جرهميـــة ، وكانت منازل جرهم بمكة وما حولها ، وقام بأمر البيت بعد " إسماعيل الحـــارث ابن مضاض الجرهمى "، وهو أول من ولى البيت .

بعد ذلك وفدت خزاعة إلى مكة بعد حادثة سيل العرم ، فـــنزلوا بظـــاهر مكة وغلبوا الجرهميين عليها ، وطردوهم عنها ، وكان أول من ولى البيت مـــن خزاعة " عمرو بن لحى "، فغير عبادة سيدنا إبراهيم عليه السلام وبدلها وجاء بالأصنام التى استحضرها كما قيل من الشام ونصبها حول الكعبة ، وظلت خزاعة تلى أمر البيت ، أما " مضر " فقد احتفظت بحق الإجازة بالناس من عرفة ، والإفاضة بهم غداة النحر إلى منى .

دور قريش وتنظيماتها لمكة :

تشعبت بعد ذلك مضر وبطون كنانة ، وصاروا أحياء وبيوتات ، وكـــانوا يقيمون بظاهر مكة ، حتى تمكن " قصى بن كلاب بن مرة " من السيادة فى مكـــة وانتزع ولاية البيت من خزاعة ، من " أبى غبشان الخزاعى ".

وإلى قصى هذا يرجع الفضل فى جمع قريش وترتيبها على منازلها بمكة، فميز بين (قريش البطاح ، وقريش الظواهر ، وقريش البطاح) هم البطون التى كانت تسكن مكة نفسها ، وكان منهم التجار والأثرياء ، وهم : (بنو عبد مناف ، وبنو عبد الدار، وبنو عبد العزى ، وبنو زهرة ، وبنو مخزوم ، وبنو تيم بن مرة، وبنو جمح ، وبنو سهم ، وبنو عدى ، وبنو عتيك بن عامر)، أما قريش الظواهر فقد سكنوا خارج مكة ، ومنهم : (بنو محارب ، والحارث بن فهر ، وبنو الأدرم ابن غالب بن فهر ، وبنو هصيص بن عامر بن لؤى).

وعند ما قسم " قصى " مكة خططاً ورباعاً بين قريش ، واتسقت له طاعاتهم وحاز شرف قريش كلها ، بنى داره فسميت " دار الندوة " ؛ لأنهم كانوا ينتدون فيها فيتحدثون ويتشاورون فى حروبهم وأمورهم ، ويعقدون الألوية ، ويزوجون من أراد الزواج . بمعنى أن هذه الدار كانت دار مشورة فى السلم والحرب ، ودار حكومة يديرها "الملأ" أو مجلس شيوخها، وهى تشبه "الأكليسا" فى أثينا ، و"السناتو" فى روما ، وهذا يدل على تطور وتطلع إلى الإصلاح .

وإلى جانب دار الندوة كانت له أى " قصى " الحجابة ، والرفادة ، والسقاية ، واللواء ، والقيادة ، وفرض " قصى " على قريش **لرفادة الحجيج** ، فكانوا يخرجونه ، ويأمر بإنفاقه على طعام الحاج وشرابهم . أما " **الحجابة** " : فكان القائم بها يمتلك مفاتيح الكعبة ، والرفادة كما ألمحنا إطعام من لم يكن له سعة ولا زاد من الحجاج . وأما **السقاية** : فهى التكفل بسقاية الحجاج عن طريق أحواض من أدم كانت توضع بفناء الكعبة ومنى وعرفات ، وأما اللواء : فراية يلوونها على رمح وينصبونها علامة للعسكر إذا توجهوا للحرب ، وتدور حوله المعارك ، والقيادة: هى قيادة الجيش عند الحرب يتولاها قصى أو من ينيبه عنه .

ولما كبرت السن " بقصى " قسم مهام مكة بين ولده على بعض الروايات ؛ فجعل السقاية والرياسة لعبد مناف ، ودار الندوة لعبد الدار ، والرفادة لعبد العزى، وحافتى الوادى لعبد قصى ، وذكر الأزرقى فى كتابه (أخبار مكة) أن " قصى " قسم أمور مكة الستة بين ابنيه عبد الدار ، وعبد مناف ؛ فأعطى عبد الدار : السدانة وهى الحجابة ودار الندوة واللواء ، وأعطى عبد مناف السقاية والرفادة والقيادة .

المهم أنه بعد ذلك أصبح لعبد مناف السقاية والرفادة ، أما الحجابة ، واللواء والندوة فكانت لبنى عبد الدار ، ثم انتقلت السقاية والرفادة " لهاشم بن عبد مناف ، ثم للمطلب بن عبد مناف ، ثم لعبد المطلب ، ثم للزبير بن عبد المطلب ، ثم لأبى طالب ، ثم إلى العباس بن عبد المطلب ، ثم إلى عبد الله بن عباس .." وهكذا .

مركز مكة التجارى وعلاقاتها بالقوى المعاصرة :

منذ نهاية القرن السادس الميلادى احتكرت قريش تجارة الهند بفضل جهود زعيمها " هاشم بن عبد مناف " الذى يعتبر أول من سن رحلتى قريش : رحلة الشتاء ، والصيف ، الأولى لليمن ، والثانية للشام ، ويذكر اليعقوبى أن : تجارة قريش كانت لا تعدو مكة ، فضاق " القرشيون " بذلك ذرعاً، مما حدا بهاشم أن رحل إلى بلاد الشام التابعة للدولة البيزنطية ، وكان الكرم والسماحة قد شاعت عن هاشم ، وما أن بلغ القيصر ذلك حتى أرسل إليه ، وما أن تم اللقاء بين الزعيمين حتى قال هاشم : أيها الملك لى قوم وهم تجار العرب ، فتكتب لهم كتاباً يؤمنهم ويؤمن تجارتهم ففعل القيصر ذلك ، وكان كلما يمر بحى من العرب أخذ منهم الإيلاف أى العهد .

وذكر البلاذرى : أن هاشم بن عبد مناف أخذ لقريش عصماً من ملـــوك الشام ، فتجروا آمنين، ثم إن أخاه عبد شمس أخذ لهم عصماً من صاحب الحبشة، وإليه كان متجره ، وأخذ لهم المطلب بن عبد مناف عصماً من ملـــوك اليمـــن ، وأخذ لهم نوفل بن عبد مناف عصماً من ملوك العراق فكـــانت رحلتـــا الشـــتاء والصيف . وفى ذلك يقول مطرود بن كعب الخزاعى :

يا أيها الرجل المحول رحلة

هلا نزلت بآل عبد منـــاف

الآخذون العهد من آفاقها

والراحلون لرحلة الإيلاف

ويعد هذا دليل واضح على تعدد العلاقات بين قريش القائمة بأعمال مكة ، وبين القوى السياسية المعاصرة ، حتى أن التجارة أصبحت تمر بسهولة ويســـر بين الشرق والغرب مما دفع إلى وجود عدد من الأسواق التى تعـــبر عـــن نمـــو وتطور اجتماعى واقتصادى معاً وعنها نقول .

أهم الأسواق :

بالطبع ساعد على احتكار قريش لتجارة الهند والحبشة واليمن ، الحـــروب المتواصلة بين فارس وبيزنطة ، وهى حروب انتهت بتغلب الفرس على الـــروم ، ونتج عن ذلك إغلاق المسالك التجارية عبر آسيا الغربية ، وهكذا أصبحت الحجاز ملتقى القادم إلى اليمن أو المجتاز إلى الطائف أو المتجه إلى الشام والمشرق .

ولقد ساعد موقع الحجاز بين الشام واليمن على طريق التجـــارة بيـــن الشـــمال والجنوب على قيام مدن تجارية ينزلها التجار لراحتهم ، فازدهرت لذلك " مكة والطـــائف ويثرب ".

وهناك عامل آخر ساعد على ازدهار هذه المدن هو قربها من الأسواق التجارية المشهورة التى كانت تعقد فى الأشهر الحرم لتأمين الناس أثناءها على أموالهم وأنفسهم مثل ؛ سوق " عكاظ " الذى كان يقام فى بسيط بين الأرض بين مكة والطائف وينزلها قريش وسائر العرب وأكثرهم من مضر ، وسوق " مجنة " وكانت سوقاً بأسفل مكة " لبنى كنانة "، وسوق " حباشة " بالقرب من بارق ، وكانت سوقاً للأزد ، وسوق " ذى المجاز "، وكانت لهذيل بالقرب من عرفة .

ويذكر الأزرقى : أن الناس كانوا يخرجون فى موسم الحج فى شهر ذى الحجة ، فيصبحون بعكاظ يوم هلال ذى القعدة ، فيقيمون به عشرين ليلة تقوم فيها أسواقهم بعكاظ والناس على مداعيهم ودراياتهم منحازين فى المنازل ، تضبط كل قبيلة أشرافها وقادتها ، ويدخل بعضهم فى بعض للبيع والشراء ، ويجتمعون فى بطن السوق فإذا مضت العشرون انصرفوا إلى " مجنة " فأقاموا بها عشراً ، أسواقهم قائمة ، فإذا رأو هلال ذى الحجة انصرفوا إلى ذى المجاز ، فأقاموا به ثمان ليال ، أسواقهم قائمة ، ثم يخرجون يوم " التروية " من ذى المجاز إلى عرفة ، فيتروون ذلك اليوم من الماء بذى المجاز .

وهكذا نكون قد ألقينا ضوءاً يسيراً على " مكة المكرمة " من حيث اشتقاق الاسم وتفسيره ، وتعدد أسماء مكة ، وبعض جغرافيتها ، وشذراً من تاريخها قبل ظهور الإسلام ، ودور قريش وتنظيماتها لمكة ، ومركز مكة التجارى وعلاقتها بالقوى المعاصرة كما ألمحنا إلى أبرز الأسواق التى كانت تقام فى موسم الحج ، لننتقل بعد ذلك إلى كلامنا على سيرة سيد المرسلين سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم .

*****

القسم الثانى
السيرة النبوية العطرة

مولد الرسول ﷺ ونشأته :

كان لعبد المطلب بن هاشم سيد قريش عشرة من الأبناء ، أحدهم " عبد الله " والد النبى ﷺ ، وقد زوجه أبوه من " آمنة بنت وهب " سيد بنى زهرة ، ولم يلبث " عبد الله " هذا أن توفى فى إحدى رحلاته ، والسيدة " آمنة " حاملاً برسول الله ﷺ . وبعد أن مرت أيام الحمل واكتمل الجنين كانت ولادته الطاهرة، فقد ولد ﷺ على أغلب الروايات يوم الاثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول ، فى عام الفيل المشهور ٥٧٠ أو ٥٧١م ، فكان ذلك اليوم هو أسعد يوم طلعت فيه الشمس على الدنيا .

والنبى الكريم هو : " محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ". وينتهى هذا النسب إلى سيدنا إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام .

وحينما ولد ﷺ ، أرسلت أمه " آمنة " إلى جده عبد المطلب ، فأتى حاملاً إياه ونظر إليه ودخل به الكعبة ودعى له وأسماه محمداً .

رضاعته عليه الصلاة والسلام:

فى أول الأمر أرضعته " ثويبة " جارية عمه " أبى لهب " بضعة أيام ، ثم التمس " عبد المطلب " لحفيده اليتيم مرضعة من البادية على عادة العرب ، لما كانت تتمتع به البادية من صفاء الهواء ، وسلامة الأخلاق ، واعتدالها ، والبعد عن مفاسد المدينة .

وأقبلت المراضع من المدينة من قبيلة بنى " سعد " ، التى اشتهرت بذلك ، وجاءت السيدة " حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية " ، من بلدها تلتمس الرضعاء ، وكان الرسول ﷺ قد عرض على الرضعاء فذهدن فيه ، لأنهن كن يرجون العطاء من أبى الصبى ، فقلن يتيم ! وما عسى أن تصنع أمه وجده ؟ وهكذا فعلت حليمة فى أول الأمر ، ثم انعطف قلبها عليه ، وألهمها الله حبه ، ولم تكن قد وجدت غيره ، فأخذته ورجعت به إلى قومها . وقد لمست البركة التى تزايدت لأخذ هذا الصبى . وبعد مضى عامان فى بنى سعد فصلته ﷺ ، وقدمت به إلى أمه وردته إليها .

وفاة السيدة آمنة وعبد المطلب :

وعندما بلغ ﷺ ست سنوات من العمر خرجت به أمه إلى " يثرب " ليزور " النبى "ﷺ أخواله ، وتزور هى قبر زوجها ، وعند عودتها إلى " مكة " ألم بها المرض وأدركتها الوفاة (بالأبواء) موضع بين مكة والمدينة .

وهكذا اجتمعت على " النبى " ﷺ وحشة فراق أمه الحنون ، ووحشة الغربة ، التى لازمته منذ ولادته . وعندئذ عادت به أم أيمن " بركة الحبشية " إلى " مكة " وسلمته إلى جده " عبد المطلب ".

فكان جده به حفياً يجلسه على فراشه فى ظل الكعبة ويلاطفه ، وعندما بلغ رسول الله ﷺ من العمر ثمانى سنين ، توفى جده عبد المطلب ، فذاق مرارة اليتم والحرمان مرة ثانية ، ربما أشد وأقوى من الأولى ، فالنبى الكريم لم ير أباه ولم ينعم بعطفه وحنوه ، فكان الشعور بفقده شعوراً عقلياً تقليدياً ، لكن الشعور

بفقد جده " عبد المطلب " ، كان شعوراً حسياً تجريبياً ، وهناك فرق كبير بين الشعورين . لكن " أبا طالب " عمه كفله بعد وفاة جده الحبيب .

كفالة عمه أبي طالب :

وبعد وفاة الجد الحبيب ، كفل النبى الكريم عمه " أبو طالب "، الذى كان أرفق به من أبنائه "على، وجعفر، وعقيل ". ويذكر التاريخ إن "أبا طالب" قد خرج للتجارة إلى الشام ، وكان رسول الله ﷺ برفقته وهو ابن تسع سنين أو عشر ، وعندما وصل الركب إلى بلدة " بصرى " من أرض الشام وكان بها راهب يدعى " بحيرى "، رأى هذا الراهب النبى ﷺ ، فاحتفى به وتأكد من علامات النبوة فيه ونَبَّه "أبا طالب" على علو مكانته ، وقال له ارجع بابن أخيك إلى بلده وأحذر عليه اليهود ، فرجع به أبو طالب إلى مكة سالماً . وقد أكد ذلك كثير من كتاب السيرة.

التربية الإلهية :

شب النبى الكريم ﷺ محفوظاً من عند الله سبحانه وتعالى من عادات الجاهلية وأقذارها ، فكان أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقاً ، وأشدهم حياءً ، وأصدقهم حديثاً ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم عن الفحش والبذاءة حتى أسموه (الأمين) .

وكان ﷺ واصلاً للرحم ، حاملاً لما يُثقل كواهل الناس ، مكرماً للضيوف ، عوناً على البر والتقوى ، وكان يأكل من نتيجة عمله .

ولما بلغ الرسول ﷺ أربع أو خمس عشرة سنة ، قامت حرب " الفجار " بين قريش وقيس ، وقد شهد الرسول أيامها ، وكان ينبل على أعمامه أى يرد عنهم نبل عدوهم إذا ما رماهم ، وبذلك عرف الحرب، وعرف الفروسية والفتوة.

ولما شب عن الطوق اتجه للعمل ، فرعى الأغنام ، وفيه كسب شريف وتربية نفس ، وترويض على العطف على الضعفاء ، وسياسة للأوابد ، واستنشاق للهواء النقى الصافى ، وتقوية للجسم ، وفوق ذلك كله فهى اتباع لسنة الأنبياء ، فقد رُوى عنهﷺ أنه قال بعد النبوة " ما من نبى إلا وقد رعى الغنم ، قيل وأنت يارسول الله : قال : وأنا " ، وقد ثبت فى الصحاح أنه كان يرعى الغنم فى مكة على قراريط يأخذها من أهلها .

زواجه ﷺ :

لما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وعشرين عاماً ، كان زواجه من السيدة " خديجة بنت خويلد " وهى من سيدات قريش ، ومن فضليات النساء فى رجاحة عقلها ، وكرم أخلاقها ، وسعة مالها . وكانت أرملة توفى عنها زوجها "أبو هالة"، وقد بلغت حينذاك من العمر أربعين سنة .

وكانت السيدة " خديجة " لها مال تتاجر فيه ، ويؤثر عن " النبى "ﷺ أنه عمل فى تجارتها إلى الشام ، ولصدقه ، وأمانته ، وأخلاقه الفاضلة تزوجته السيدة " خديجة " بعد أن رفضت كثيرين من أشراف قريش تقدموا لها .

وهى أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ وولدت له كل أبنائه ما عدا إبراهيم .

الرسول الكريم ودرء فتنة قبل مبعثه :

رغبت قريش فى بنيان الكعبة لسقفها إذ كانت حجارتها بعضها فوق بعض من غير طين ، وكانت فوق القامة، وكان لابد من هدمها وبنائها من جديد.

وعندما بلغ البنيان موضع الركن اختصموا فى الحجر الأسود ، فكل قبيلة ترغب فى رفعه إلى موضعه دون الأخرى ، حتى تحظى بالشرف العظيم ، وتفاقم الأمر إلى حد القتال والحرب .

وفى تلك الأثناء قربت " بنو عبد الدار " جفنه مملوءة بالدم ، وتعاقدوا مع " بنى عدى " على الموت ، وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم ، دلالة على الشر ، وظلت قريش على ذلك أياماً ، وبعد ذلك اتفقوا فيما بينهم على أن أول من يدخل من باب المسجد يحكم فى أمرهم ، وكان أول داخل هو النبى الكريم ﷺ فلما رأوه قالوا هذا الأمين هذا " محمد ".

وعندئذ دعا رسول الله بثوب وأخذ الحجر ووضعه فيه بيده ، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من هذا الثوب ، ثم ارفعوا جميعاً ، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده الشريفة ، ثم بنى عليه .

وكان " النبى "ﷺ فى تلك الآونة قد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره ، وبهذا العمل نجح فى درء فتنة كان لا يعرف مداها ، وحقن دماء قريش بحكمته ، ورفقه ، فكانت مقدمة لدرئه للحروب والشرور عن الشعوب والأمم بعد النبوة . وصدق الله العظيم إ يقول : **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** . الأنبياء (١٠٧)

حلف الفضول :

وقد شهد النبي ﷺ " حلف الفضول " ، ومما يذكر في سبب وجود هذا الحلف أن رجلا من " زبيد " قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها منه " العاص بن وائل " أحد أشراف قريش ، وحبس عنه حقه ، عندئذ استعدى عليه " الزبيدى " أشراف قريش فأبوا أن يعينوا على " العاص بن وائل " لمكانته بينهم ، وانتهروا " الزبيدى" الذى استغاث بأهل مكة ، واستعان بكل ذى مروءة .

فهاجت عندئذ الغيرة والحمية فى رجال من ذوى المروءة والفتوة ، فاجتمعوا فى دار " عبد الله بن جدعان " الذى صنع لهم طعاما ، ثم تعاقدوا ، وتعاهدوا بالله ، ليكونوا يدا واحدة مع المظلوم على الظالم ، حتى يؤدى إليه حقه، فسمت قريش ذلك الحلف " حلف الفضول " ، وقالوا لقد دخل هؤلاء فى فضل من الأمر ثم مشوا إلى "العاص بن وائل"، فانتزعوا منه سلعة "الزبيدى" ودفعوها إليه.

وكان الرسول ﷺ مغتبطا بهذا الحلف ، متمسكا به حتى إنه قال بعد البعثة : لقد شهدت فى دار " عبد الله بن جدعان " حلفا ، لو دعيت به فى الإسلام لأجبت ، تحالفوا أن يردوا الفضول على أهلها ، وأن لا يعز ظالم مظلوما . يعز: يغلب ، وقد قال فى هذا الحلف " الزبير بن عبد المطلب " .

إن الفضول تحالفوا وتعاقدوا

أن لا يقيم ببطن مكة ظالم

أمر عليه تحالفوا وتعاقدوا

فالجار والمعتز فيهم سالم

ومن أشهر من دخل فى هذا الحلف : " بنو هاشم ، وبنو المطلب ، وأسد ابن عبد العزى ، وزهرة بن كلاب ، وتيم بن مره " وغيرهم .

بعثة الرسول (تباشير الصبح وطلائع السعادة)

اكتمل عمر النبي ﷺ (أربعين عاما) والدنيا على شفا حفرة من نار ، والإنسانية تخطو بخطى سريعة إلى الانتحار ، عندئذ كانت تباشير الصبح وطلائع السعادة ، وآن الأوان لبعثة النبي ﷺ ، وتلك سنة الله إذا اشتد الظلام وطالت الشقوة . وكان النبي الكريم دائما يؤثر العزلة ، ويألف النسك والعبادة ، وكان يذهب إلى " غار حراء " يتحنث فيه الليالي ، ويتأمل عجائب الكون ، وبديع صنع الخالق ، متخذا معه بعض الزاد ، فإذا فرغ منه عاد إلى بيته إلى زوجته السيدة "خديجة بنت خويلد ".

ولم يزل على ذلك حتى جاءه اليوم الموعود لبعثته ﷺ ، وكان اليوم السابع عسر من رمضان ، وكان النبي ﷺ في يقظته ، وجاءه الوحي ، جبريل عليه السلام فقال له : اقرأ قال النبي ﷺ ما أنا بقارئ فاحتضنه بقوة وقال له اقرأ ، قال : ما أنا بقارئ ، فكرر معه ذلك ثلاث مرات ، ثم قال له " **اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم** " العلق (١-٥) .

وكان ذلك أول يوم من أيام النبوة ، وأول ما نزل من القرآن الكريم .

وقد فزع الرسول من هول الموقف الذي رآه، وعاد إلى منزله يرتجف ، قائلا : زملوني . أي غطوني ولفوني ، وهو أيضا معنى التدثير ، وبعد أن هدأ روع النبي ﷺ ، بدأ يقص ما حدث لزوجته السيدة " خديجة " قائلا : لقد خشيت على نفسي ، فقالت له : كلا والله ، ما يخزيك الله أبدا " إنك لتصل الرحم ،

وتحمل الكل (الأثقال والحوائج) وتقرى الضيف ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الحق .

وأخذته ، وانطلقت به إلى " ورقة بن نوفل " ابن عم السيدة " خديجة " ، وكان قد تنصر فى الجاهلية ، وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل ، وكان شيخا كبيرا وعالما ذا قدر معلوم .

فقالت له السيدة " خديجة " يا لبن العم اسمع من ابن أخيك ، فقال له "ورقة" ماذا ترى ، فأخبره الرسول ﷺ بما حدث . فقال له ورقة هذا هو الناموس ، الذى نزل على موسى من قبل الله ، ياليتنى كنت فيها جذعا (شابا) عند ظهورك لأنصرك وأعينك ، لأن قومك سيخرجوك فقال أو مخرجى هم، قال نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصروا مؤزرا، ولمزيد من المعلومات يراجع كتاب " مختصر سيرة الرسول " للعلامة محمد بن عبد الوهاب . ص٥٩-٦٠ .

ثم فتر الوحى زمانا ، بعد ذلك تتابع ، وبدأ نزول القرآن الكريم ، بالدروس والعبر على ترك عبادة الأصنام والأوثان التى لا تنفع ولا تضر ، والاتجاه إلى عبادة الواحد الديان . وبدأ الرسول ﷺ دعوته سرا ، واستمر على ذلك حوالى ثلاث سنوات ، وكانت السيدة " خديجة بنت خويلد " هى أول من آمن بالدعوة ، وأول من أسلم ، وكانت إلى جوار الرسول ﷺ تؤازره ، وتخفف عنه ، وتهون عليه أمر الناس .

ثم آمن به ثلاثة رجال أختلف المؤرخون وكتاب السير فى أيهم أسبق فى الإسلام ، لكن المتفق عليه هو أن " أبا بكر عبد الله بن أبى قحافة " ، كان أول

المسلمين من الرجال الأحرار ، وكان " زيد بن حارثة " أول المسلمين من الموالى، وكان الرسول ﷺ قد تبناه .

أما أول الشباب فكان " على بن أبى طالب "رضي الله عنه . ولاشك أن " أبا بكر " كان عالى القدر فى قريش يتسم بالمروءة والاعتدال ، وكان رجلا محبوبا عالما بأنساب قريش وأخبارها . ومما يذكر فى سيرته أنه رضي الله عنه قد أسلم على يديه خمسة من كبار الصحابة وهم : " الزبير بن العوام ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله " .

ثم تلاهم فى الإسلام طبقة من رجال قريش ، كانت لهم شرف ومكانة ، منهم : " أبو عبيدة عامر بن الجراح ، والأرقم بن أبى الأرقم ، وعثمان بن مظعون ، وعبيدة بن الحارث بن المطلب ، وسعد بن زيد ، وخباب بن الأرت ، وعبد الله بن مسعود ، وعمار بن ياسر ، وصهيب الرومى " وغيرهم .

كما آمن بالدعوة من غير السيدة "خديجة " كلا من " أسماء بنت أبى بكر"، و" فاطمة أخت عمر بن الخطاب وزوج سعيد بن زيد وعندئذ بدأت دائرة المسلمين تتسع ، ويزداد مريدوها ، لتأخذ الدعوة إلى الإسلام شكلا آخر ، وهو الانتقال من السر إلى العلانية .

الجهر بالدعوة :

قلنا إن الرسول ﷺ ظل يدعو أهل مكة إلى الإسلام سرا ثلاث سنوات ، وبعد أن بدأت الدعوة تعطى بعض الثمار ، كان أمر الله سبحانه وتعالى لنبيه

بالجهر بالدعوة ، فقال تعالى " فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين " سورة الحجر الآية (٩٤ ، ٩٥) .

كانت الدعوة فى مبدأ أمرها سرية يغطيها الكتمان والخفاء ، حتى لا يقاومها الأعداء ، وهى لما تزل فى مهدها الصغير ، ثم تطورت بعد ثلاثة أعوام عملا بقول الله سبحانه وتعالى : " فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين " وعندئذ اتخذت الدعوة طريقا مغايرا للطريق الأول ، فأصبح الجهر بها أمر واضح وصريح لأنه من عند الله .

فقام سيد الخلق أجمعين بجمع القوم ومكاشفتهم بأمر الدعوة والدين الحنيف ، وبدأ أولا بعشيرته الأقربين ، وآنئذ طلب النبى الكريمﷺ من ابن عمه " على ابن أبى طالب "رضي الله عنه أن يصنع لهم طعاما ، ويدعوهم إليه ، وفيهم عمومته " بنو عبد المطلب " وأولادهم نحو الأربعين رجلا ، فلما اجتمعوا كلمهم الرسول الكريم فى أمر الدعوة الإسلامية ، وما تنادى به من نبذ معتقداتهم الفاسدة ، والإيمان بالله وحده ، فغضبوا غضبا شديدا وقاطعوا كلامه وانصرفوا مسرعين .

ولكن الرسولﷺ لم يفقد الأمل ، ولم يتقاعس عن العمل ، فأعاد الجلسة السابقة ثانية ، فلما اجتمع قومه قال لهم ما أعلم أن إنسانا جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، لقد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرنى ربى أن أدعوكم إليه فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر ، فأعرضوا عنه وهموا بتركه .

ومن العجب أن ينهض " على " وهو لما يزال صبيا فيقول : أنا يارسول الله ، أنا حرب على من حاربت ، وهنا ابتسم " بنو هاشم " وقهقه بعضهم وتعلقت

العيون " بأبى طالب وابنه " ، وقالوا لأبى طالب فى تهكم وتندر : لقد أمـــرك أن تسمع لإبنك وتطيعه ثم انصرفوا مستهزئين .

وعلى الرغم من هذا الموقف الذى يؤثر على معنويات أى إنسان ، إلا أن النبى ﷺ لم يستسلم لليأس ، بل انتقل بدعوته من عشيرته الأقربين إلى أهل مكة كلها ، واتجه ﷺ نحو جبل " الصفا " يوما ما وصعد أعلاه ، ونادى قائلا : يـــا معشر قريش ، فأقبلت قريش حينذاك إليه تسأله حاجته ، فقال : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا : نعـــم ، مـــا جربنا عليك كذبا قط . قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . يا بنى عبـــد المطلب ، يا بنى مناف ، يا بنى زهرة ، وأخذ ينادى على القبائل الواحـــدة تلـــو الأخرى .. إنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبا إلا أن تقولوا . لا إله إلا الله .

وهنا صاح بذيئ اللسان سريع الغضب " أبو لهب " قائلا : تبا لك ســـائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟ فسكت النبى ﷺ ، ونظر إليه نظرة يملؤها الأسى والأسف ، ثم لم يلبث أن نزل عليه الوحى بقوله تعالى " **تبت يدى أبى لهب وتب ، مـــا أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى نارا ذات لهب** " ..

وهكذا جاء الرد السماوى على " أبى لهب " بهذه الآيات البينـــات التـــى كانت بمثابة التشجيع للنبى ﷺ ، كما كانت فأل حسن ومقدمة بشارة ، بـــأن الله سينصر الحق على الباطل ، ويتم نوره ولو كره المشركون .

ولم يثن هذا الموقف العدائى لمشركى مكة -الرسول الكريـــم ﷺ عـــن عزمه الأكيد للدعوة الإسلامية ، بل كان حافزا للتفانى فى سبيلها ، ماضيـــا فـــى

طريقه ، مؤمنا كل الإيمان ، واثقا كل الثقة ، بأن يدى " أبى لهب " هما الهالكتان، وأنه لن يتمكن من العبث بالدعوة أو الوقوف فى سبيلها .

وقد أسلم من زهد فى الدنيا ، ومن لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن النظر فى دعوة الله ، وآمنوا تماما بأنه لا سلطان لغير الله وحده ، أما "هبل" ، و"اللات"، و"العزى"، وغيرها من الأصنام فهى لا تنفع ولا تضر ، بل ولا تغنى عن نفسها شيئا .

وفى ذلك قال الحق تبارك وتعالى : **قل من رب السموات والأرض قل الله ، قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أم هل تستوى الظلمات والنور.** الرعد (١٦) .

وبالطبع اتخذت قريش موقفا لنفسها من النبى ﷺ ومن أصحابه أيضا لابد من توضيحه .

موقف قريش من النبى ﷺ وأصحابه :

لقد وقفت قريش موقفا عدائيا من الدعوة الإسلامية ، وذلك لأنها رأت فيها تهديدا لكيانها المادى والأدبى ، إذ كانت الكعبة محج العرب ومورد ثروتهم ، ومركزهم لعبادة الأصنام ، ومن هنا فهى عزهم وفخارهم وعظمتهم التى يستمدونها من صلتهم بالبيت الحرام ، وعلى ذلك فسيكون انتصار الرسول الكريم، معناه ضياع سلطانهم الأدبى والمادى ، وهو أعز ما يعتمدون عليه فى حياتهم .

وبالتالى فقد عظم الأمر على قريش التى صممت الوقوف بشدة وحزم فى وجه رسول الله ﷺ ، وأن تعمل على قتل دعوته الإسلامية باضطهاد صاحبها ومن تبعه .

فأما موقفهم من الرسول ﷺ ، فهو موقف مؤسف للغاية تعـددت فيـه سخافاتهم واضطهاداتهم له ، منها ما روى عن " طارق المحاربى " الذى قـال : رأيت رسول الله ﷺ فى السوق يقول : أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحـوا ، ورجل خلفه يرميه بالحجارة ، وقد أدمى " عقبة "، ويقول : لا تطيعوا محمدا فإنه كذاب ، فقلت من هذا قالوا : محمد وعمه أبو لهب .

أهناك سخافات أكثر من ذلك الذى قام به عمه ، كما كان لزوج أبى لـهب سخافات لا تقل عن فعل زوجها ، إذ كانت " أم جميل بنت حرب أخت أبى سفيان" كثيرا ما ترمى الشوك فى طريق المصطفى ﷺ ، بل وتلقى على بيته القاذورات النجسة ، وكانت لم تترك عملا فيه إيذاء للرسول ﷺ إلا وفعلته ، حتى أنها سـبت الرسول ﷺ وذمته ، وأوقعت العداوة بينه وبين الناس ، وقد أنـزل الله سـبحانه وتعالى فى شأنها من كتابه الكريم ، ما يدل على سوء العاقبة التى تنتظرها يـوم القيامة .

إذ قال جل شأنه " **وامرأته حمالة الحطب فى جيدها حبل من مسـد** " أى فى رقبتها حبلا محكم الفتل تجر به إلى نار جهنم ، وتعذب به فى النار وهـى على حالها من شد رقبتها .

وإذا كان هذا الأذى الذى لحق بالرسول الكريم ﷺ من عمه أبـى لـهب وزجه أم جميل ، فلم يكن " أبو جهل " بأقل منهما أذى لرسول الله ﷺ ، فتذكـر كتب السيرة أنه ألقى على رسول الله ﷺ أثناء صلاته رحم شاه مذبوحة ، فتحمل النبى هذا الأذى ، وذهب إلى ابنته فاطمة رضي الله عنها التى أزالت عنه النجاسة والأقذار .

ونهى " أبو جهل " الرسول ﷺ عن الصلاة فى البيت الحرام ، فلما لم ينته تعرض له بالمنع ، وعندئذ قابل الرسول هذا الموقف بالشدة وهدده ، فقال "أبو جهل" أتهددني وأنا أكثر أهل الوادى ناديا ومنزلا ! فكان رد الله سبحانه وتعالى عليه تهديدا ووعيدا إذ قال تعالى : " **كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية . ناصية كاذبة خاطئة . فليدع نادية ؛ سندع الزبانية كلا لا تطعه واسجد واقترب**". العلق (١٥-١٩)

ولم يكن الأمر وقفا على " أبى لهب وزوجه ، وأبى جهل "، وإنما نرى ذلك الشقى " عقبة بن أبى معيط " الذى كان يجاور الرسولﷺ فى مسكنه ، نراه يضع ثوبه فى عنق الرسول ﷺ . بينما كان يصلى فى حجر الكعبة ، وخنقه به خنقا شديدا، فأقبل عليه سيدنا " أبو بكر"رضي الله عنه وأخذ بمنكبه ودفعه عن النبى وقال : اتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم .

ويذكر أن " الأسود بن عبد المطلب " ابن عم السيدة " خديجة "، كان هو وحزبه إذا مر عليهم المسلمون يتغامزون بهم سخرية واستهذاءا وفيهم نزل قول الله تعالى " **إن الذين أجرموا كانوا من الذين أمنو يضحكون ، وإذا مروا بهم يتغامزون** " المطففين (٢٩-٣٠)

ومما يذكر أن " الوليد بن المغيرة " عم أبى جهل ، وكان من أكابر قريش فى المركز الاجتماعى والمادى ، كذلك من أكبر المجرمين الذين كادوا للرسول ﷺ . يذكر أنه ذهب إلى النبى ﷺ ، وسمع منه القرأن ذات مرة فعاد قائلا لقومه : " والله لقد سمعت من محمد كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق،

وأنه يعلو وما يعلى عليه ، فقالت قريش : صبأ والله الوليد لتصبأن قريش كلها ، فقال " أبو جهل " أنا اكفيكموه ثم توجه إليه وجلس أمامه حزينا ، وكلمه بما حمسه ضد الرسول ﷺ ، مما جعل الوليد يأتي قومه في ناديهم ويخاطبهم قائلا : أتزعمون أن محمدا ، مجنون فهل رأيتموه يهوس ؟ وتقولون : إنه كاهن فهل رأيتموه يتكهن ؟ وتزعمون أنه شاعر ، فهل رأيتموه يقرض شعرا ، وتزعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه شيئا من الكذب ؟ فقالوا في ذلك اللهم لا .

ثم قالوا : فما هو ؟ ففكر قليلا ثم قال : ما هو إلا ساحر . أما رأيتموه فرق بين الرجل وأهله وولده ؟ فاهتز النادي فرحا بهذا الرأي الذي سيفرق بين محمد وعشيرته ، وسيباعد بينه وبين الناس ، وقد أنزل الله سبحانه وتعالى ردا عليه مخاطبا الرسول ﷺ .

" **ذرني ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا إنه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا** [1] **. إنه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس** [2] **وبسر** [3] **. ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر سأصليه سقر** [4] ". المدثر (١١-٢٦)

وهكذا رأينا كيف تعرض الرسول ﷺ ، إلى أقسى ألوان التعذيب والنكال من أقرب الناس إليه ، من أبي لهب وزوجه ، ومن أبي جهل وغيرهم من الذين

---

(١) صعودا : سأذيقه عذابا صعبا لا يطاق .   (٢) عبس : قطب وجهه .

(٣) بسر : كلمة مرادفة لعبس .

(٤) سقر : اسمم من أسماء النار لا تبقى شيئا إلا هلكته .

طمس الله على قلوبهم ، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم ، الذين هلكوا جميعا بعد الهجرة ، فمنهم من قتل ، ومنهم من ابتلاه الله بالأمراض الفتاكة فقضت عليه .

موقف قريش من أصحاب الرسول ﷺ :

نأتى الآن لموقف قريش من أصحاب الرسول ﷺ الذين ناصروه واتبعوا دعوته ، فنرى " بلال بن رباح "رضي الله عنه يلاقى أشد وأقسى أنواع العذاب على يد أمية بن خلف لا يصبر عليها إلا مؤمن قوى الإيمان ، فكان إذا حميت الشمس وقت الظهيرة يلقيه سيده على وجهه وظهره ، ثم يضع حجرا على صدره ، ويقول له : ستظل هكذا حتى تكفر بمحمد ﷺ ، وتؤمن باللات ، لكنه احتمل كل هذا ، وصبر صبرا جميلا ، وكلما التمسوا منه جوابا ، لا يرد عليهم إلا بكلمة واحدة هى أحد . أحد .

وفى يوم ما رآه سيدنا " أبو بكر "رضي الله عنه يعانى أشد أنواع التعذيب، فقال لسيده أمية، ألا تتقى الله فى هذا المسكين ؟ فقال : أنت أفسدته وفتنته عن دين آلهتنا وعبادة أصنامنا ، فعرض عليه أبو بكر رضي الله عنه ثمنا له ، ومازال يساومه حتى اشتراه منه ، واعتقه فى سبيل الله بعد أن خلصه من تعذيب سيده ، وفى هذا نزل قول الله عز وجل .

" فأنذرتكم نارا تلظى ! لا يصلاها إلا الأشقى . الذى كذب وتولى وسيجنبها الأتقى . الذى يؤتى ماله يتزكى . وما لأحد عنده من نعمة تجزى . إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى " . الليل (١٤-٢١)

والمقصود هنا بالأشقى " أمية ابن خلف "، والأتقى هو الصديق رضي الله عنه ، وقد نبه الله عز وجل على أن بذل أبى بكر رضي الله عنه بماله فى شراء " بلال " وغيره لم يكن إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى . وغير "بلال" نرى "عمار بن ياسر وأبيه وأمه" رضوان الله عليهم ، يعانون كثيرا من التعذيب فى سبيل الله . فكان المشركون من " بنى مخزوم "، إذا ما اشتدت حرارة الشمس ألبسوا "آل ياسر" الدروع الحديدية ، وتركوهم فى الشمس ، يالها من قسوة بالغة إذا عرفنا حر مكة فى فصل الصيف.

ولقد مر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورآهم فى هذا العذاب ، فقال لهم صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة ، وقد مات " ياسر" فى العذاب ، بينما " سمية " زوجته فقد أغلظت القول لأبى جهل ، فطعنها فى قلبها بحربته فماتت ، وشدد العذاب على " عمار"، إذ كان يعرض للشمس المحرقة بين صخور مكة ، ورمالها تارة ، وبوضع الصخر على صدره تارة أخرى ، قائلين له: لا نتركك حتى تسب محمدا، وتقول فى " اللات والعزى " خيرا ، ففعل فتركوه . فأتى النبى صلى الله عليه وسلم يبكى فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : ما وراءك ؟ قال شر يارسول الله ، كان الأمر كذا وكذا ، وقص عليه ما حدث ، فقال النبى فكيف تجد قلبك ؟ قال أجده مطمئنا بالإيمان ، فقال : يا عمار إن عادوا فعد ، فأنزل الله تعالى قوله : من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان .

ولم يكن هذا الموقف ، موقف ضعف من عمار إنما هو قد رأى ما حدث لأبيه ياسر ، ولأمه سمية ، فربما كان موقفه مجرد تحايل من أجل البقاء والمعاندة لهم لكى يكون موقفه دليلا على مدى تمسكه بوحدانية الله .

وها هو " خباب بن الأرت"رضي الله عنه ، عندما أسلم أخذه الكفار وسحبوه على وجهه ، وعذبوه عذابا شديدا ، إذ نزعوا ثوبه عن جسده وألقوه على الرمضاء (الرمل الشديدة الحرارة) ، وجاءوا بالحجارة المحماة ووضعوها على ظهره ، ولووا رأسه ، كل ذلك من أجل أن يعود إلى الكفر ، لكنه لم يجبهم إلى شيئ مما أرادوا .

وها هو " مصعب بن عمير " فتى مكة شبابا وجمالا، وكان أبواه يحبانه ، وكانت أمه غنية كثيرة المال ، تكسوه أحسن ما يكون من الثياب وأرقه ، وكان أعطر أهل مكة ، يلبس الحضرمي من النعال ، وقد ذكره النبىﷺ بقوله : ما رأيت بمكة أحسن لمة ولا أرق حلة من مصعب بن عمير ، ولا أنعم نعمة .

وكان مصعب هذا قد أسلم على يد النبىﷺ ، وكان يختلف إليه سرا ، وإذا بعثمان بن طلحة قد رآه يصلى ، فأخبره على الفور أنه وقومه ، حتى تم حبسه ، ولم يزل كذلك حتى خروجه إلى أرض الحبشة فى الهجرة الأولى .

وكان أبو بكر الصديقرضي الله عنه مما أوذى فى سبيل الله أيضا ، إذ وجه إليه المشركون كثيرا من الأذى رغم مكانته فى قريش حتى خرج مهاجرا إلى الحبشة، فلقيه " ابن الدغنة " وهو من سادات العرب فسأله إلى أين يا أبا بكر ؟ فقال أخرجنى قومى وإنى أريد أن أسيح فى الأرض وأعبد ربى ، فقال : مثلك يا أبا بكر لا يخرج : وأنت فى جوارى وحماى .

فرجع مع " ابن الدغنة " ، وعرفت قريش بذلك ، فطلبت قريش عندئذ من حامى الصديق أن يأمره بعبادة ربه فى داره ، ولا يجهر بصلاته وقراءته ، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا .

فلبث " أبو بكر "رضي الله عنه في داره يعبد ربه ، ثم بدا له أن يبنى مسجدا بفناء داره ، فبناه ، وكان يصلى ويقرأ القرآن ، فيهرع إليه نساء المشركين وأبناؤهم ينظرون إليه ، ويستمعون إلى ما يقرأ . وكان " أبو بكر"رضي الله عنه رجلا بكاءا لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن ، فأفزع ذلك الأمر أشراف قريش ، فأرسلوا إلى " ابن الدغنة " ، وقالوا له إن "أبا بكر" قد أخل بالشروط ، فأبتنى مسجدا ، وأسمع الناس القرآن فى صلاته ، وقد خشينا الفتنة على نسائنا وأبنائنا ، فأتى "ابن الدغنة" " أبا بكر"، وقال له إما أن تلتزم شرط الجوار؛ وإما أن ترجع إلى ذمتى ؛ فقال أبو بكر رضي الله عنه عندئذ إنى أرد عليك جوارك ؟ وأرضى بجوار الله ، وكان هذا الموقف من الأسباب التى أدت إلى إلحاق الأذى بأبى بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه .

وهكذا رأينا ما قام به المشركون من الأذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وامتد أذاهم كذلك لأصحابه رضي الله عنهم فلم يثنهم هذا عن إيمانهم وتمسكهم بوحدانية الله سبحانه وتعالى ، ومن هنا كان التفكير مع الرسول فى بديل آخر .

* ابن الدغينة : يقال سيد الأحابيش .

استكمالا للمسلسل الرديء من جانب قريش تجاه الرسول ﷺ ، حاولوا فى هذه المرة إغراءه بأمور دنيوية ، ظانين أنهم ربما يوفقوا هذه المرة .

فجاءه " عتبة بن ربيعة " ، وقال له : يا ابن أخى ، إنك منا حيث قد علمت من المكان فى النسب ، وقد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم فاسمع منى ، سوف أعرض عليك أمورا ربما تقبل بعضها ؛ لو كان دافعك لما تدعو إليه مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تصير أكثرنا مالا ، ولو كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ .

وما أن فرغ " عتبة " من قوله حتى تلا عليه النبى ﷺ سورة السجدة ، وأنصت " عتبة " إلى كلام الله المعجز ، والأسلوب الفريد ، ثم تفرس فى شخص محمد ﷺ ، فرآه رجلا كبير العقل ، ناضج الفكر ، لا مطمع له فى مال ، ولا فى جاه أو سلطان ، وإنما يبلغ الحق عن رب الحق ، ويدعو إلى البر والخير ، وإلى وحدانية الله الواحد القهار .

عندئذ انصرف " عتبة " إلى قريش مأخوذا بجمال ما رأى وما سمع ، مفتونا بعظمة محمد ﷺ ، وسحر بيانه ، فلما أفضى لقومه بهذا الانطباع ، غضبوا عليه وسخروا منه ، وقالوا له : سحرك محمد يا أبا الوليد .

وهكذا رأينا موقف النبى ﷺ الواضح من مناوئيه ، فلا يهمه أبدا إلا رضاء الله ، ولا يرغب فى أى متاع فى هذه الدنيا ، لكن كل رغبته هى الدعوة لدين الله ، وإعلاء كلمة الحق .

ولما فشلت تلك المحاولة ، اتجهوا إلى محاولة أخرى ألا وهى أن يوغروا صدر عمه " أبى طالب " عليه ، حتى يتخلى عن نصرته ، وذلك أن فريقا من قريش فى مقدمتهم أبو سفيان بن حرب مشوا إلى " أبى طالب " ليوغروا صدره على سيدنا محمد ﷺ ، فقالوا له : إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تخلى بيننا وبينه : فردهم " أبو طالب " ردا جميلا ، ولكن سيدنا محمد مضى فى طريق الحق وإعلاء كلمة الله دون أن يعبأ بشيء .

وعندئذ مشت قريش ثانية إلى " أبى طالب " آخذين معهم عمارة بن الوليد بن المغيرة ، وكان أنهد فتى فى قريش ، وطلبوا إليه أن يسلم إليهم محمدا ، بعمارة ليتخذوه ولدا ، فسخر " أبو طالب " من رأيهم ولم يجبهم إلى طلبهم .

ولما نفد صبرهم ، وأعيتهم الحيل ، ذهبوا إلى " أبى طالب " للمرة الثالثة منذرين متوعدين ، فقالوا له : يا أبا طالب إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا ، وقد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنته ، وأنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين .

وهذا يعد موقفا متطورا من جانب قريش إذ هددت فيه " أبا طالب " ، إن لم يضع حدا لموقف سيدنا محمد ﷺ منهم ، فسوف يكون القتال معهما ، وهنا وجم " أبو طالب " لموقف قريش هذا ، وأصابه هم وحزن عظيم ، فهو أصبح بين أمرين أحلاهما مر ، فإما أن يترك ابن أخيه لقريش تنزل به نقمتها ، وإما أن يقف وجها لوجه أمام قريش فى حرب دامية لا يدرك مداها :

حقا كان موقفا يحتاج إلى تفكير . ومن هنا فقد استدعى " أبو طالب " ابن أخيه ﷺ ، وقص عليه ما حدث ، وقال له " ابق على وعلى نفسك يا ابن أخى ولا تحملنى مالا أطيق " .

وعلى ضوء ذلك يظهر الإيمان فى أعلى صوره ، وأسمى معانيه ، إذ أدرك سيدنا محمد أن " أبا طالب " ربما يتخلى عنه أمام هذا الضغط المكثف من جانب قريش ، كما أدرك موقف الوحى ، والحصانة القوية التى أفرغتها العناية الإلهية فى قلبه ، ومن هنا هان الوجود أمام تلك الرسالة التى كرمه الله بها ، تجمع كل هذا فى تفكيره لينطق لسانه بالعبارة المأثورة التى قال فيها : والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه .

وتعجب " أبو طالب " لهذا الموقف الرائع من ابن أخيه ، وثارت فى نفسه عاطفة قوية بمؤازرته فى هذه المحنة ، فقال له ، وقد رآه يخرج وينصرف . أقبل على ثم قال له : اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت فو الله لا أسلمك لشيئ تكرهه أبدا .

وهنا نرى موقف النبى ﷺ الثابت على الحق ، والذى هانت روحه فى سبيله ، كما نرى موقف " أبا طالب " الذى تعاطف مع ابن أخيه . والذى طلب من بنى هاشم ، وبنى المطلب حمايته . ومنعه من قريش فاستجابوا له جميعا فيما عدا " أبا لهب " ، فإنه أمعن فى غية وضلالة ، وصارحهم بعداوته التى لا حدود لها للدعوة الإسلامية وصاحبها وأنصارها .

هجرة المسلمين الأولى إلى الحبشة :

إزاء هذا الموقف المتوتر ، والمعاناة التى عاناها الرسول الكريم ﷺ وصحبه وتهديد عمه بالحرب ، كل هذا عز على النبى ﷺ ، لا سيما ما يقاسيه أتباعه ، فأشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة المسيحية ، والحبشة بالذات ، لأن بها ملكا لين العريكة ، لا يظلم عنده أحد ، وكانت تلك السنة الخامسة من البعثة النبوية .

فخرجوا إليها وكان عددهم أحد عشر رجلا وأربع نسوة ، ومنهم عثمان ابن عفان ، وزوجته رقية ابنة الرسول ﷺ ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعثمان ابن مظعون ، والزبير بن العوام ، وعبد الله بن مسعود ، خرجوا سرا ، ولما وصلوا البحر الأحمر ركبوا سفينة أوصلتهم إلى الحبشة ، فأقاموا فى خير جوار النجاشى ، ولكنهم رجعوا بعد ثلاثة أشهر إلى مكة ، لأنه قد نما إلى علمهم أن المسلمين فى مكة أصبحوا فى مأمن من قريش لاسيما بعد إسلام حمزة بن عبد المطلب ، وعمر بن الخطاب .

وإذا ما نظرنا إلى هذه الهجرة الأولى للحبشة ، والتى لم يبق المسلمون فيها إلى لفترة وجيزة . لأدركنا مدى أثرها البالغ فى سبيل الدعوة الإسلامية وعلى مستقبلها . فلقد أقنعت هذه الهجرة مشركى قريش أن أتباع النبى ﷺ ، يقبلون على الصعاب بصدر رحب من أجل دين الله ، وبذلك أعلنوا تصميمهم على المضى فى طريق الدعوة الإسلامية مهما كان الثمن .

إسلام حمزة و عمر رضي الله عنهما :

رأينا كيف عانى المسلمون من الاضطهادات المتكررة لقريش ، وكيف أحدق بهم الخطر من كل صوب وحدب ، حتى كانت هجرتهم الأولى إلى الحبشة، فى تلك الأثناء كان إسلام حمزة بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ ، ومن بعده بأيام قليلة كان إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فكان إسلامهما فتحا أعز الله به الإسلام و المسلمين .

فأما عن إسلام "**حمزة**" فتذكر المصادر أنه كان فى السنة السادسة من البعثة النبوية ، وذلك أن " أبا جهل " مر بمحمد ﷺ عند الصفا ، فسبه ، وأسمعه من الكلام ما يكره ، فأعرض النبى ﷺ عنه ولم يرد عليه بكلمة ، وكان " حمزة " كما هو معروف رجلا قويا ذا ولع بالصيد و القنص ، فلما رجع من صيده فى ذلك اليوم وعلم بما أصاب ابن أخيه من سفاهة " أبى جهل " ، امتلأ عندئذ غضبا وذهب إلى الكعبة ، ولم يقف مسلما على أحد ممن كان عندها ، وقصد " أبا جهل" وهجم عليه قائلا له ، كيف تسب محمدا ، وأنا على دينه ؟ وضربه بقوسه ضربة شديدة .

وهنا أراد رجال من بنى مخزوم أن يتدخلوا لنصرة " أبى جهل " ، لكنه أى " أبا جهل " منعهم حسما للشر معترفا بما وقع منه لمحمد ﷺ . وعندئذ أعلن حمزة إسلامه ، وعاهد النبى على النصرة و التضحية فى سبيل الله حتى النهاية .

ولقد أصاب قريش هم وحزن عظيمين بإسلام حمزة ، الذى أصبح سياجا يحمى النبى ﷺ ، وينافح عنه ضد أى اعتداء يقع من جانب قريش عليه .

وأما عن إسلام " **عمر بن الخطاب** "رضي الله عنه . فتذكر المصادر ، أنه كان فى أول أمره من ألد أعداء الرسول ﷺ ، وفى يوم ما صمم على النيل من الرسولﷺ ، حتى ينتهى أمر الدعوة الإسلامية ، لكن الله أراد به الخير ، فشرح صدره للإسلام ، ثم لم يلبث أن صار من أحب الناس لرسول الله ﷺ ، وأشدهم تفانيا فى نصرة الحق وإعلاء الدين الحنيف . وعن إسلام هذا البطل يقول المؤرخون :

لقد خرج " عمر " رضي الله عنه ذات يوم متوشحا بسيفه متجها إلى الرسول ﷺ ، فلقيه فى الطريق " نعيم بن عبد الله "، فقال له : إلى أين وجهتك يا ابن الخطاب ، قال أريد محمدا الذى فرق أمر قريش ، وسفه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلهتنا فأقتله . فقال له " نعيم " : والله لقد غرتك نفسك يا عمر ، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا .

أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم أولا . فقال : وأى أهل بيتى ؟ قال : ابن عمك " سعيد بن زيد بن عمرو ، وأختك فاطمة بنت الخطاب زوجته ، فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه ، فعليك بهما .

فرجع "عمر" عامدا إلى أخته وزوجها ، وكان معهما " خباب بن الأرت " يعلمهما صحيفة من القرآن بها سورة طه ، وعندما سمع " خباب " صوت " عمر" اختبأ فى البيت منه لشدة بأسه ، وفى الوقت نفسه قامت " فاطمة بنت الخطاب " بإخفاء الصحيفة .

وكان " عمر " قد سمع حين دنا من البيت هينمة ، فلما دخل قال ما هذا الصوت الخفى الذى سمعته ، قالا ما سمعنا شيئا ، قال بلى والله لقد أخبرت أنكما

تابعتما محمدا ﷺ على دينه ، ثم بطش " بسعيد بن زيد " ، فقامت إليه " فاطمة بنت الخطاب " لتكفه عن زوجها ، فضربها هى الأخرى ضربة قوية، فلما فعل ذلك قالت أخته وزوجها ، نعم لقد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فأصنع ما تريد .

فلما رأى " عمر " ما بأخته من آثار الضرب ندم على ما صنع ، وكف عن ذلك ، وقال لأخته أعطينى الصحيفة التى سمعتكم تقرعونها ، لأنظر ما هذا الذى جاء به " محمد "ﷺ ، فقالت له أخته إنا نخشاك عليها ، فقال لا تخافى ، وحلف بآلهته ليردها إليها فور قراءته لها ، فقالت له أخته عند ذلك ، إنك نجس ومشرك، ولا يمسها إلا المطهرون ، فقام واغتسل ، ومن هنا أعطته أخته الصحيفة .

فلما قرأ سورة طه بها ، قال ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ، فلما سمع " خباب " ذلك ، خرج إليه فقال : يا عمر والله أنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فإنى سمعته أمس وهو يقول : اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هاشم، أو بعمر بن الخطاب فالله الله يا عمر .

قال له " عمر " عند ذلك دلنى يا خباب على محمدﷺ حتى آتيه فأسلم ، فقال " خباب " هو فى بيت عند الصفا ومعه فيه نفر من أصحابه ، فتوشح عمر سيفه ، واتجه إلى رسول الله ﷺ ، فلما طرق الباب رآه من ثقبه أو خلل به أحد صحابة الرسول وهو متوشحا سيفه ، ففزع وقال يا رسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشحا سيفه ، فقال حمزة ابن عبد المطلب ، فأذن له فإن كان يريد خيرا بذلناه له ، وإن كان يريد شرا قتلناه بسيفه ، فقال الرسول ﷺ إئذن له فأذن له الرجل .

وهنا نهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه بالحجرة فأخذ بمجمع ردائه ثم جذبه جذبة شديدة ، وقال : ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ فقال عمر : يا رسول الله جئتك لأؤمن بالله ورسوله ، وبما جاء من عند الله ، فكبر الرسول تكبيرة عرف منها أهل البيت من أصحاب الرسول أن عمر قد أسلم .

وهكذا أسلما " حمزة بن عبد المطلب ، وعمر بن الخطاب "رضي الله عنه ، وكان إسلامهما فتحا على المسلمين ، ازدادت بهما شوكتهم ، وعلا قدرهم ، وكان لابد من زيادة الكيل لهم من جانب قريش التى تألمت كثيرا لإسلام حمزة وعمر .

المقاطعة والصحيفة :

بدأ الإسلام ينتشر ويزداد أصحابه ، ومن هنا قررت قريش أن تستخدم أسلوبا جديدا هو (المقاطعة) فلقد تعاقدت فيما بينها على ألا تصاهر بنى هاشم ، وبنى المطلب ، ولا يبيعوهم أو يبتاعوا منهم شيئا ، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه فى صحيفة ، ثم علقوها فى جوف الكعبة تأكيدا على أنفسهم فيما توصلوا إليه .

وهكذا فكرت قريش فى أسلوب المقاطعة ضد بنى هاشم وبنى المطلب ، حتى يتم الضغط من جانب هؤلاء على محمد ﷺ ، فلم يصاهروهم ولم يبيعون لهم ، ولم يشتروا منهم ، وهذا كله تأثير اقتصادى بالغ الحدة ، وفى نفس الوقت تأثير معنوى كبير .

وهنا كان لابد من موقف مضاد لبنى هاشم ، وبنى المطلب ، إذ انضما إلى جانب أبى طالب ، تأييدا له فى موقفه ، وشدا من آزره فى مواجهة المحنة إلا أبى لهب الذى خرج منضما لقريش فى أهدافها القذرة ، وكان ذلك فى العام السابع من البعثة النبوية .

الهجرة الثانية إلى الحبشة :

ويبدوا أن هذا الوضع قد أدى إلى هجـرة ثانيـة إلـى الحبشـة ، إذ أن المهاجرين الأول كانوا قد هموا بالرجوع إلى مكة كما قلنا ، عندما نما إلى علمهم تناقص التوتر بين المسلمين وبين قريش ، لكنهم عرفوا الحقيقة بعد ذلك ، وعلموا بما فرضته قريش من حصار اقتصادى على المسلمين فلا يتعامل معهم البتـة ، وعلى الرغم من أن بعض الروايات تقول بأن المهاجرين الأول قد اقتربوا مـن مكة ، بل ودخلوا إليها فى جوار أحد الرجال ، إلا أن الموقف كان سيئا للمسلمين، حتى طلب الرسول ﷺ منهم الخروج ثانية إلى أرض الحبشة .

وبالفعل كانت الهجرة الثانية ، وكان عدد المسلمين فى هذه المرة نحوا من ثلاثة وثمانين رجلا ، وثمانى عشرة امرأة ، ويذكر الشيخ محمد بن عبد الوهـاب أنهن تسع عشرة امرأة .

وكان من بين الرجال الذين هاجروا جعفر ابن أبى طالب وزوجه أسـماء بنت عميس ، والمقداد بن الأسود ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله ابن جحـش وامرأته أم حبيبة بنت أبى سفيان ، ومنهم الأشعريون أبو موسى وبنو عمه .

موقف قريش من الهجرة :

فزعت قريش من هذه الهجرة ، وخشيت على نفسها من مناصرة الحبشـة للمسلمين ، وعندئذ أرسلت من جانبها كلا من عمرو بن العـاص بـن وائـل ، وعمارة بن الوليد أو (عبد الله بن أبى ربيعة) على رواية أخرى ، ومعهما هدايـا قيمة من قريش لكل من : النجاشى إمبراطور الحبشة ، وبطارقته ، وقد نجحا فى استمالة البطارقة بهذه الهدايا فضمنا موقفهما المؤيد لهما .

وعندئذ قالا للملك " النجاشى " فى مجلسه : لقد لجأ إليك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا دينك ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ، ولا أنتم ، والرسالة من قريش على لسان مبعوثيها ، وقد بعثنا إليك أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهما ، فهما أبصرا بهم وأقربا إليهم .. عندئذ قالت البطارقة من حول " النجاشى " . صدقا ، وحقا أيها الملك فأسلمهم إليهما .

غضب " النجاشى " فى تلك اللحظة ، وأبى أن يسلم من لجأ إليه وإلى بلاده ، ثم أرسل فى طلب المسلمين ، كما دعا أساقفته ، وقال للمسلمين ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ؟ ولم تدخلوا فى دينى ودين أحد من الملل ؟ .

جعفر بن أبى طالب ورده على النجاشى :

عندئذ وقف جعفر بن أبى طالب قائلا : أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيئ للجار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ، ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبده نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، ونهانا عن الفواحش ، وأكل مال اليتيم ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا شريك له ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فصدقناه وآمنا به وأتبعناه على ما جاء به من الله .. فلم نشرك بالله ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ، عذبونا ، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان .. فلما قهرونا وظلمونا ، وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا

وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك ، وأخترناك على من سواك ، ورغبنا فى جوارك ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك .

سمع " النجاشى كل هذا فى هدوء ووقار ، ثم قال : هل معك ما جاء به صاحبكم عبد الله من شيئ ؟ .. قال جعفر نعم .. قال النجاشى فاقرأ على .. فقرأ جعفر صدرا من سورة مريم ، فبكى النجاشى حتى أخضلت لحيته وبكى أساقفته .

وهكذا رأينا تلك المناظرة الرائعة التى سبق بها جعفر علماء العصر الحديث ، تلك المناظرة التى أوضح فيها حال العرب قبل الإسلام وحالهم بعد الرسول الكريم ﷺ ، فكانت إجابته توضيحا وبيانا كافيا شافيا ، ولم يكن جوابه كلمة قالها جزافا ، كانت إجابته لإماطة اللثام ، إجابة تجريبية ملموسة لما كان وما طرأ من تغيير بعد النبوة حتى يتضح البياض من السواد ، إجابة تدل على حسن بيان ، وقوة بلاغة ورجاحة عقل ، ومقدرة دبلوماسية فائقة فى توضيح وجهة النظر وعلى جانب آخر كان النجاشى على مستوى المسئولية والتقدير ، إذ لم يصادر كلاما بل سمع وأحسن الاستماع لموقف المسلمين من خلال كلام جعفر، وطلب البينة على الموقف ، مما يدل أن النجاشى كان يتمتع ببعد نظر ، ورجاحة عقل ، وقدرة على تقدير المواقف .

لأنه رد قائلا : إن هذا والذى جاء به عيسى عليه السلام يخرج من مشكاة واحدة ، ثم اتجه لرسولى قريش قائلا لهما : انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما .

وهنا أراد " عمرو بن العاص " أن يطلق آخر أسهمه فى هذا الموقف فقال للنجاشى ، إنهم يقولون فى عيسى بن مريم قولا عظيما ، فأقبل النجاشى عليهم قائلا : ماذا تقولون فى عيسى بن مريم ؟ فقال " جعفر بن أبى طالب " : نقول فيه

ما جاء به نبينا ﷺ . هو عبد الله ورسوله ، وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول ، فضرب النجاشي عندئذ بيده إلى الأرض فأخذ منها عودا . ثم قال : والله ما زاد عيسى بن مريم على ما قلت مقدار هذا العود .

وعلى ضوء ذلك رد النجاشي المسلمين ردا جميلا ، وخرجوا من عنده وروحهم المعنوية في غاية الارتفاع . في الوقت الذي أصيب فيه وفد قريش بخيبة أمل ذريعة ، وفشل في المسعى لا يدانيه فشل ، وقد حسن مقام المسلمين بالحبشة ، كما ساعدوا النجاشي حينما اعتدى على بلاده ، فزادهم ذلك محبة للنجاشي وتقديرا .

وكانت هذه الهجرة في العام الخامس بعد النبوة على أغلب الروايات ، وقد مكث " جعفر " مع عدد من أصحابه إلى عام ٧ من الهجرة النبوية ، لأنه كما تذكر المصادر قدم إلى رسول الله ﷺ في غزوة خيبر ، فكان بقاؤه في الحبشة إذن خمس عشرة عاما . وهي مدة طويلة بلاشك انتفع فيها جعفر بالدعوة إلى الإسلام ، والتعريف به في بلد امتاز عن كثير من بلاد النصرانية بالتسامح وإيواء المضطهدين ، على رواية بعض المصادر التاريخية .

نقض الصحيفة وإنهاء المقاطعة :

نعود ثانية بعد هذه السياحة التاريخية في هجرة المسلمين الثانية للحبشة ، نعود إلى موقف قريش المعاند وموضوع الصحيفة ، فإن أهل المروءة والشهامة لم يعجبهم هذا الموقف العدائي الظالم من جانب قريش ، وفي مقدمة هؤلاء " هشام بن عمرو بن ربيعة " ، وكان رجلا ذا شرف في قومه ، مشى عندئذ إلى رجال من قريش ، أنس فيهم الرقة ، والرجولة ، فاستثار حميتهم وإنسانيتهم

لنقض الصحيفة ، والخروج من هذا التعاقد الظالم ، ولما وصل عددهم إلى خمسة اجتمعوا وقرروا نقض الصحيفة ، وعندما كانت قريش فى أنديتها قام " زهير بن أبى أمية " ، وأقبل على الناس قائلا :

يا أهل مكة ! أنأكل الطعام ، ونلبس الثياب ، وبنو هاشم هلكى لا يباع ولا يبتاع منهم ؟ والله لا أقعد حتى تشق الصحيفة الظالمة هذه ، وحاول " أبو جهل " كعادته التدخل فى الموقف لكنه لم يفد ، وقام المطعم بن عدى إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا (باسمك اللهم) ، وكان النبى ﷺ قد أخبر " أبا طالب " بذلك .

وهكذا مزقت الصحيفة ، وبطل ما فيها من عهود ومواثيق من جانب قريش ضد المسلمين ، وضد بنى هاشم وبنى المطلب . وإذا كان النبى الكريم قد تنفس الصعداء بهذا العمل فإنه سيواجه موقفا صعبا للغاية يضاف إلى مواقفه المؤلمة ، لأنه سيفقد أعز شخصيتين عليه إضافة إلى ما فقد ، سيفقد زوجه السيدة " خديجة " الحصن ، والملاذ ، والسياج ، والأمان ، وشريكة حياته ، ويفقد سنده ، وحصنه ، ومؤازره عمه " أبو طالب " . يالها من أزمة ، وياله من ألم أحدق بسيدنا محمد ﷺ .

الرسول ﷺ وعام الحزن :

زمان هذا العام هو العاشر من البعثة النبوية ، وفيه فقد النبى ﷺ ، شخصيتين من أعز الشخصيات عليه: الأولى زوجته السيدة "خديجة بنت خويلد "، والثانية عمه ونصيره " أبا طالب " .

ففى العام المذكور ، وقبل الهجرة إلى المدينة بثلاث سنوات ، توفيت السيدة خديجة ، التى كانت بمثابة البلسم لرسول الله ﷺ ، فهى المؤيدة والموازرة، وهى السكن ، وهى القلب الحنون على رسول الله ﷺ ، وهى المصدقة لما جاء به من ربه ، وكان النبى ﷺ قد أنجب منها عددا من البنين والبنات ، فهى أم كل أولاده ما عدا إبراهيم .

وقد أنجبت لرسول الله ﷺ " زينب " ، كبرى بناته ، وقد تزوجها فى الجاهلية " أبو العاص بن الربيع " ، كما أنجبت له " رقية وأم كلثوم " ، تزوجهما " عثمان بن عفان " ، إذ تزوج رقية بمكة قبل الهجرة ، وهاجر بها إلى الحبشة ، وتزوج الثانية بالمدينة بعد وفاة الأولى ، كما أنجبت له " فاطمة " ، وكانت صغرى بناته ، والتى تزوجت من " على بن أبى طالب " رضي الله عنه .

كما أنجبت السيدة خديجة أولادا توفوا وهم صغار " كالقاسم ، وعبد الله الملقب بالطيب والطاهر" . وما أن توفيت السيدة خديجة ، إلا وتركت أثرا نفسيا على رسول الله ﷺ لما كانت عليه من الرقة مع رسول الله ﷺ .

ويذكر أن النبى ﷺ تزوج من بعدها " سودة بنت زمعة " ، العامرية القرشية ، بعد وفاة زوجها وابن عمها " السكران ابن عمرو " ، وكانت مؤمنة برسول الله ﷺ ، وخالفت أقاربها وبنى عمها وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة فى المرة الثانية خشية الفتنة . وعندما رجع زوجها من الهجرة توفى ، فما أجمل من أن يقوم النبى الكريم ﷺ بالزواج منها ، لأنها لو تركت لقومها مع ما هم عليه

من الغلظة وكراهة الإسلام لفتنوها ، وقد كرم النبى نسبها فى أهلها لأنه هو ﷺ الذى تزوجها ، ولم يتركها لرجل أقل منها نسبا وشرفا .

أى أن زواج النبى ﷺ ، من " سودة بنت زمعة " كان حماية لها من الفتنة لو كانت فى أهلها .

كما تزوج النبى الكريم ﷺ بعد ذلك من "عائشة بنت أبى بكر الصديق" ، وكانت صغيرة السن وقت زواجها .

وما أن مر شهران على وفاة السيدة " خديجة " ، إلا وفقد النبى ﷺ ، عمه " أبا طالب " حصنه وملاذه وسياجه الواقى ، الذى كثيرا ما منع أذى أعدائه عنه ، ومع أنه كان لا يكذب رسول الله ﷺ فيما جاء به ، بل يعتقد صدقه إلا أنه لم ينطق بالشهادتين حتى آخر لحظة من حياته ، وفيه نزل قول الله تعالى فى سورة القصص " **إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين** " (٥٦) .

ولقد تأثر الرسول كثيرا لفقده ، لما كان يقوم به من أعمال طيبة تجاه رسول الله ﷺ .

وأما عن عدم إسلامه ، فذلك الغالب بين أقارب الرسول ﷺ ، ومرد هذا لحكمة معينة ، إذ أن أقارب الرسول لو اتبعوه ، لقيل إنهم قوم يبحثون عن السيادة، والفخر مما ليسوا فيه ، فجاءوا بهذا الأمر المفترى ، ولكن لما رأى المعاندون أن متبعية هم الغرباء عنه ، بل من أعداء عشيرته أحيانا " كعثمان بن عفان " مثلا من بنى أمية ، عندئذ لم تكن هناك حجة لهم يقيمونها ، اللهم إلا

دعاويهم الكاذبة ، التى كانوا يتمسكون بها عند عجزهم عن مقارعة الحجة بالحجة، مثل قولهم ساحر ، وكاهن ، وغير ذلك .

وقد سمى رسول الله ﷺ هذا العام الذى فقد فيه زوجته السيدة " خديجة "، وعمه " أبا طالب " ، سماه عام الحزن لهذا الألم ، الذى ألم به ﷺ . لفقدهما .

وقد نالت قريش أثر وفاة " أبى طالب " من الرسول كثيرا ، فازداد أذاها ضده ، فنثروا التراب على رأسه ، ووضعوا أحشاء المذبوحات عليه أثناء صلاته ، وتعلقت به كفار قريش ذات مرة يتجاذبونه ، ويقولون له : أنت الذى تريد أن تجعل الآلهة إلها واحدا ؟ فأنقذه " أبو بكر الصديق " ، وردد قوله : اتقتلون رجلا أن يقول ربى الله .

هجرة الرسول ﷺ إلى الطائف :

قلت إن الأذى قد اشتد على الرسول الكريم فى الوقت الذى كان فيه يعانى من الحزن العميق لفقده شخصيتين عزيزتين عليه ، وعندئذ حاول النبى ﷺ أن يتوجه إلى ثقيف بالطائف ، يرجوهم مناصرته على قومه ، حتى يتم أمر الله ، لأنهم أقرب الناس إلى مكة ، وله فيهم خؤولة إذ أن أم " هاشم بن عبد مناف عاتكة السلمية " من بنى سليم بن منصور ، وهم حلفاء ثقيف . وفى هذا المقام لا نجد مندوحة من إلقاء بعض الضوء على الطائف .

أضواء على الطائف :

مدينة الطائف هي المدينة الثالثة الكبيرة بعد مكة المكرمة ويثرب التي سعدت بقدوم النبي ﷺ إليها ، وكانت زيارته لها في سبيل الدعوة الإسلامية حدثا كبيرا في التاريخ ، وقد زارها مرتين الأولى في شوال من السنة العاشرة بعد البعثة ، والثانية في شوال أيضا من السنة الثامنة بعد الهجرة النبوية .

وتقع مدينة الطائف على مسافة خمسة وسبعين ميلا تقريبا ، إلى الجنوب الشرقي من مكة ، على ظهر جبل عزوان الذي يبلغ ارتفاعه حوالي ٦٠٠٠ قدم ، واسم الطائف مأخوذ من السور أو الحائط الذي كان يحيط ويطوف بالمدينة ، وكان اسمها القديم (وج) . وكان أثرياء قريش ووجوهها قد ابتنوا قصورا في الطائف ، ليقضوا بها شهور الصيف القائظة .

وكانت الطائف مدينة مزدهرة تنتشر بها الزراعة والصناعة ، كما عدد ذلك البلاذري في كتابه فتوح البلدان ، ولما كان أهلها في سعة من العيش ؛ أورثهم ذلك الكبر والغرور، وقد انفردت ثقيف بالسيادة في الطائف ، وأصبحت من أعظم القبائل العربية التي يضرب بها المثل في القوة والثراء ، ومن الثابت تاريخيا أنه كان بين ثقيف وقريش منافسة في مجال العقيدة ، ورئاسة الأوثان ، وكانت تنظر إلى وثنها اللات كمنافس لهبل ، بل للكعبة ، فأقامت حوله حرما أحاطته بمظاهر التقديس ، حتى عندما زحف " إبرهة " على مكة كان لثقيف موقف مؤيد لهذا الهجوم ، حتى أنها بعثت كما تقول المصادر " أبارغال " كدليل للجيش ضد مكة ، لكن هذا الدليل مات في الطريق ، وقد أبغضه العرب ورجموا قبره .

وكان الثقفيون أغدق العرب عيشا ، وهواهم مع بني أمية ، التقوا معهم في حب الثراء والجاه ، وقد قال رسول الله ﷺ قريش والأنصار حليفان ، وبنو أمية وثقيف حليفان ، وكان " عروة بن مسعود " سيد ثقيف زوج " آمنة بنت أبي سفيان " ، وقد نبغ في ثقيف " الحارث بن كلده " ، وقد رحل إلى فارس ، وتعلم الطب واشتهر طبه بين العرب ، كما اشتهر من بعده ابنه " النضر " ، الذي تجول في عدة أقطار ، وصحب الأحبار والكهنة ، وأخذ الطب عن أبيه ، وكان كثير العداء والحسد للنبي ﷺ ، كما اشتهر منهم " أمية بن الصلت " الشاعر المخضرم، والذي كان حاقدا على الرسول أيضا ، رغم أنه قال شعرا في التوحيد والحكمة .

المهم أن النبي ﷺ توجه إلى الطائف ، ومعه مولاه " زيد بن حارثة " ، وقد قابل هناك ثلاثة من رؤساء ثقيف وهم : عبد ياليل ، ومسعود ، وحبيب أولاد عمر بن عمير الثقيفي ، فعرض عليهم نصرته لإعلاء حكمة الله ، لكن ردهم عليه كان قبيحا ، وحينذاك طلب منهم الرسول ﷺ ألا يشيعوا ذلك الموقف بين الناس حتى لا تعلم قريش فيزداد أذاها على المسلمين .

ولكن ثقيف لم تفعل ذلك ، بل أرسلت سفهاءها وغلمانها ، يقفون في وجه النبي ﷺ يسدون عليه الطريق ويرمونه بالحجارة حتى أدموا عقبه ، وكان " زيد بن حارثة " يدرأ عنه ذلك . ثم انتهى النبي ﷺ بعد ذلك إلى شجرة كرم استظل بظلها ، وكانت هذه الشجرة بجوار بستان " لعتبة وشيبة ابني ربيعة " ، وهما من أعدائه ، وكانا في البستان فكرة رسول الله ﷺ مكانهما .

عندئذ دعا ربه قائلا : اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى ، غير أن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وعندما أبصراه ابنى ربيعة " عتبة وشيبة " رقا له وأرسلا إليه بقطف عنب مع " عداس " وهو مولى نصرانى ، فلما ابتدأ الرسول ﷺ يأكل منه ، قال : **بسم الله الرحمن الرحيم** ، فقال " عداس " هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له ﷺ من أى البلاد أنت وما دينك ؟ فقال نصرانى من نينوى ، فقال له ﷺ من قرية الرجل الصالح " يونس بن متى " . قال وما علمك بيونس ؟ فقرأ له من القرآن ما فيه قصة يونس ، فلما سمع ذلك " عداس " أسلم ، وقد أتى " جبريل " عليه السلام برسالة من الله عز وجل وقال لسيدنا محمد ﷺ أن الله أمرنى أن أطيعك فى قومك لما صنعوه معك ، فقال ﷺ ، اللهم أهد قومى فإنهم لا يعلمون . فقال " جبريل " عليه السلام صدق من سماك الرؤوف الرحيم .

وعندما كان النبى ﷺ بنخلة[1] أتاه وفد من الجن يستمعون للقرآن ، فلما سمعوه أنصتوا له ورجعوا إلى قومهم منذرين وأبلغوهم خبر رسول الله ﷺ ، وفيهم نزل قول الله .

---

(١) نخلة : مكان بين مكة والطائف .

" وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا ، فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين * قلوا يـا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى ، مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم " الأحقاف (٢٩-٣٠)

وقد قص الله سبحانه وتعالى قصة الجن بعبارة أطول فى سورة سميت باسمهم .

وهكذا رأينا كيف خرج الرسول ﷺ من مكة إلى الطائف فى محاولة منها ﷺ ، أن يجد نصيرا ومؤيدا للدعوة الإسلامية ، لكنه لم يرو ظمأه فى ذلك ، فقرر العودة إلى مكة ، ولكن كيف يدخلها وقد علمت قريش بذهابه إلى الطائف يطلب نجدتهم ، وعلى الفور أرسل إلى "المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف"؛ يخبره أنه سيدخل مكة فى جواره ، فأجابه " المطعم " إلى ذلك ، وتسلح هو وبنه ه ، وتوجهوا مع رسول الله ﷺ إلى " المطاف " فقال له بعض المشركين : أمجير أنت أم تابع ؟ فقال بل مجير . قالوا : إذن لا تخفر ذمتك . أى لا تحرس من بذمتك حتى ذلك الأمر لم يعجب قريش .

الإسراء والمعراج :

وعلى ذلك ، فقد أعد الله رحلة لسيدنا محمد ﷺ ، لكى يخرج من الهم والحزن والضيق الذى عاناه فى سبيل نشر الدعوة الإسلامية ، وكانت هذه الرحلة هى الإسراء والمعراج . وعنها نقول :

الإسراء هو توجه النبى ﷺ ليلا من المسجد الحرام إلى بيت المقدس بإيلياء (القدس) ورجوعه في ليلته ، و أما المعراج فهو صعوده إلى العالم العلوى .

وقد جاء قول الحق تبارك وتعالى تأكيدا لذلك " **سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ليريه من أياتنا إنه هو السميع البصير** " الإسراء : آية (١) .

وإذا كان هذا تأكيد للإسراء فإننا نرى قول الحق تبارك وتعالى فى سورة النجم ، ما يؤكد المعراج منها قوله تعالى : " **ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى** ". النجم : آية ١٧ ، ١٨)

ويروى الشيخان ما نقله القاضى عياض فى شفائه عن " أنس بن مالك " قوله : قال رسول الله ﷺ : أتيت بالبراق وهو دابة فوق الحمار ودون البغل ، يضع حافره عند منتهى طرفه ، قال فركبته حتى أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقة التى تربط بها الأنبياء ، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ، ثم خرجت ، فآتاني جبريل بإناء من خمر ، وإناء من لبن ، فاخترت اللبن ، فقال جبريل عليه السلام : اخترت الفطرة ، ثم عرج بنا إلى السماء **فاستفتح** جبريل عليه السلام فقيل : من أنت ؟ قال جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد . قيل أو قد بعث إليه ؟ قال بعث إليه ، ففتح لنا فإذا " بآدم "عليه السلام فرحب ودعا لى بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء **الثانية** فاستفتح جبريل عليه السلام ، فقيل من أنت ؟ قال جبريل عليه السلام، قيل : ومن معك ؟ قال محمد ، قيل ، أو قد بعث إليه ؟ قال قد بعث إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بابنى الخالة " يحيى وعيسى بن مريم "عليه السلام، فرحبا بى ودعوا إلى

بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء **الثالثة** فذكر مثل الأول . ففتـــح لنـــا ، وإذا أنـــا "بيوسف "عليه السلام ، وإذا هو قد أعطى شطر الحسن ، فرحب ودعا لى بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء **الرابعة** ، فذكر مثله ، فإذا أنا " بإدريس "عليه السلام فرحب بـــى ودعا لى بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء **الخامسة** ، فذكر مثله، فإذا أنا " بـــهارون " عليه السلام فرحب بى ودعا لى بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء **السادسة** ، فذكـــر مثله فإذا أنا " بموسى "عليه السلام فرحب بى ودعا لى بخير ، ثم عـــرج بنـــا إلـــى السماء **السابعة** ، فذكر مثله ، فإذا أنا " بإبراهيم "عليه السلام مسندا ظهره إلى البيـــت المعمور.. ثم ذهب بى إلى " سدرة المنتهى : ، فإذا أوراقها كآذان الفيلـــة ، وإذا بثمرها كالتلال . فلما غشيها من أمر ربى ما غشيها تغيرت ما أحد من خلـــق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها ، فأوحى الله إلى ما أوحى ، فعرض علـــى وعلـــى أمتى خمسين صلاة فى كل يوم وليلة ، فنزلت إلى موسى عليه السلام فقال ما فـــرض ربك عليك وعلى أمتك ؟ قلت خمسين صلاة ، قال ارجع إلى ربك فسله التخفيـــف ، فإن أمتك لا يطيقون ذلك ، فإنى قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم ، قال فرجعـــت إلى ربى ، وقلت له ياربى خفف عن أمتى فحط عنى خمسا ، فرجعت إلى موسى فقلت حط عنى خمسا ، قال إن أمتك لا يطيقون ذلك فارجع إلـــى ربـــك فسلـــه التخفيف ، قال فلم أزل أرجع بين ربى تعالى وبين موســـى عليه السلام حتـــى قـــال سبحانه: " يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشـــرة فتلـــك خمسون صلاة .. ومن هم بحسنة ، فلم يعملها كتبت له حسنة ، ومن هم بحســـنة

فعملها كتبت له عشرا ، ومنه هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب له شيئا ، ومن هم بسيئة فعملها كتبت له سيئة واحدة " .

قال : فنزلت إلى موسى فأخبرته فقال ارجع إلى ربك فسله التخفيف ، فقلت قد رجعت إلى ربى حتى استحيت منه .

عاد بعد ذلك ﷺ من ليلته ، فلما أصبح أقبل على نادى قريش ، فجاء إليه " أبو جهل " ، فحدثه رسول الله ﷺ بما حدث ، عندئذ قال " أبو جهل " يا بنى كعب بنى لؤى هلموا ، فأقبل عليه كفار قريش ؛ فأخبرهم الرسول ﷺ الخبر ، فصاروا بين مصفق ، وواضع يده على رأسه تعجبا وإنكارا لذلك الحدث الجلل. وقد ارتد أناس من ضعاف القلوب ، وذهب رجال إلى " أبى بكر " ، فقال إن كان قال ذلك فقد صدق ، قالوا أتصدقه على ذلك ؟ قال إنى لأصدقه على أبعد من ذلك فسمى " الصديق " .

وهنا كان لابد للكفار من موقف ، فأرادوا اختبار رسول الله ﷺ وقالوا له صف لنا بيت المقدس وكان من بينهم من رأوه ، فجلاه الله له فكان يصفه لهم بابا بابا ، وموضعا موضعا ، فقالوا لقد أصبت فى الوصف ، فأخبرنا عن عيرنا ، وكانت لهم عير قادمة من الشام ، فأخبرهم بعدد جمالها ، وأحوالها ، وقال تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يتقدمها جمل أورق[1]، فخرجوا فى انتظار ذلك اليوم .

وما أن أتى الموعد المحدد حتى قال قائل منهم هذه والله الشمس طلعت ، وقال الآخر وهذه العير والله قد أقبلت فى مقدمتها الجمل الأورق كما قال محمد

(١) أوراق : لونه بين الغبرة والسواد .

هل يتعلمون من ذلك الموقف ؟ كلا فقد ازدادوا عنادا ، وقالوا هذا سحر مبين .

ياله من موقف عملى دلل بالبيان صدق الرسول ﷺ ، ويا لجهالة وظلم وغطرسة كفار قريش .

وفى صبيحة الإسراء جاء " جبريل "عليه السلام" وعلم رسول الله ﷺ كيفية الصلاة ، وأوقاتها ، فركعتين إذا ظهر الفجر ، وأربع ركعات إذا زالت الشمس ، ومثلها إذا ضوعف الظل ، وثلاثا إذا غربت الشمس ، وأربعا إذا غاب الشفق الأحمر .

ولو أمعنا النظر فيما ذكر عن الإسراء والمعراج ، لوجدنا أن الله سبحانه وتعالى جلت قدرته ، قد خفف بهذه الرحلة مما كان يقاسيه النبى ﷺ من عناء ، سواء ارتبط هذا العناء بإساءات قريش ، أو بفقده ﷺ زوجه ، وعمه ، فكانت الإسراء والمعراج هدية ومكافأة سخية للنبى ﷺ على ما هو فيه ، كما أنها قد وضعت أساسا مهما فى بناء الدولة الإسلامية ألا وهو الصلاة لينتقل النبى ﷺ بعد ذلك بدعوته من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة ليظهر الله الدين الصحيح ولتكون أمة المسلمين خير أمة أخرجت للناس .

الرسول ﷺ يعرض دعوته على القبائل :

لما رأى الرسول ﷺ هذه المواقف التى لا تنتهى من قريش ، وأن كفارهم قلوبهم غلف ، بدأ عليه السلام يخرج فى المواسم أى الأسواق[١] التى كانت تعقد للتجارة ، حتى يلتمس فيها نصيرا لدعوته ، وعلى الرغم من تباين

(١) أشهر الأسواق : ثلاثة : عكاظ ، ومجنة ، وذو المجاز .

الردود على النبى ﷺ ، إلا أنه واصل جهده ومثابرته فى سبيل الدعوة إلى الله ، ولم يعبأ بالرد القبيح من جانب بنى حنيفة " رهط مسيلمة الكذاب " ، ولا بما طلبه " بنو عامر " ، إذ قالوا إن هم آمنوا به يجعل لهم أمر الرياسة من بعده .

واصل النبى ﷺ جهده حتى التقى ببعض أنصار المدينة (يثرب) ، وفى أول الأمر كانوا ستة هم (أسعد بن زرارة ، وعوف بن الحارث، ورافع بن مالك، وقطبة بن عامر ، وعقبة بن عامر ، وجابر بن عبد الله) وقد دعا النبى ﷺ هؤلاء الستة إلى الإسلام ، وإلى معاونته فى تبليغ ونشر الدعوة إلى الله ، فآمنوا به ووعدوه المقابلة فى العام المقبل .

بيعة العقبة الأولى :

العقبة هى مكان رمى الجمار ، وفى العام الثانى عشر للبعثة النبوية التقى النبى ﷺ مع اثنا عشر رجلا (عشرة من الخزرج ، واثنان من الأوس) وهم : (أسعد بن زرارة ، وعوف ومعاذ ابنا الحارث ، ورافع بن مالك ، وذكوان بن قيس ، وعبادة بن الصامت ، ويزيد بن ثعلبة ، والعباس بن عبادة ، وعقبة بن عامر ، وقطبة بن عامر) وهؤلاء من الخزرج . وأما من الأوس فكانا رجلان هما : (أبو الهيثم بن النيهان ، وعويم بن ساعدة) .

وقد بايع هؤلاء الرجال على أن لا يشركوا بالله شيئا ، ولا يسرقوا ، ولا يزنوا ، ولا يقتلوا أولادهم ، ولا يأتون ببهتان يفترونه بين أيديهم ، ولا يعصونه فى معروف ، فإن وفوا فلهم الجنة ، وإن غشوا من ذلك شيئا فأمرهم إلى الله عز وجل إن شاء غفر وإن شاء عذب .

وقد أرسل النبى ﷺ معهم (مصعب بن عمير العبدرى ، وعبد الله بن أم مكتوم) ليعلماهم القرآن وتعاليم الإسلام . وأتت الثمار مبشرة بالخير إذ انتشر الإسلام فى دور يثرب حتى لم يكن بينهم حديث يدور إلا عن الإسلام .

هذا عن بيعة العقبة الأولى التى أطلق عليها فى بعض الأحيان بيعة النساء، وذلك لأن " عفراء بنت عبيد بن ثعلبة " كانت كما تذكر بعض المراجع من بين المبايعين ، وهناك من يذكر أنها كانت أولهم .

بيعة العقبة الثانية :

وفى العام التالى أى الثالث عشر من البعثة النبوية ، ولما كان وقت الحج التقى النبى ﷺ ببعض وفود الحجيج بعد ثلث الليل من إحدى الليالى ، وكان عددهم ثلاث وسبعين رجلا منهم ثنتان وستون من الخزرج ، وأحد عشر رجلا من الأوس ، وكان معهم امرأتان هما (نسيبة بنت كعب من بنى النجار ، وأسماء بنت عمرو من بنى سلمة) .

وكان مع النبى ﷺ عمع " العباس بن عبد المطلب " الذى تحدث مع الوفد ، على حماية سيدنا محمد ، وإلا فيتركوه لأنه فى منعة من قومه ، وتحدث البراء بن معرور ، قائلا : والله لو كان لنا فى أنفسنا ما ننطق لقلناه ولكنا نريد الوفاء والصدق والأمانة ، وبذل مهجنا دون رسول الله ، وقال الوفد للرسول ﷺ خذ لنفسك ولربك ما أحببت (فقال النبى ﷺ ؛ اشترط لربى أن تعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئا ، ولنفسى أن تمنعونى مما تمنعون عنه نساءكم وأبناءكم متى قدمت عليكم ، فرحبوا بذلك وبدأت المبايعة ، وعرفت ببيعة العقبة الثانية .

وقد بايعه الرجال على ما طلب ، ثم تخير منهم اثنى عشر نقيبـــا لكـل عشيرة منهم واحد ، تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس . وقال لهم أنتم كفلاء قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل قومى . وقد علمت قريـــش بهذه البيعة لكنها لم تفعل شيئا مع الوفود .

المهم أن الإسلام ظهر بالمدينة (يثرب) بعد عودة الأنصار أكثر مـــن ذى قبل ، فى الوقت الذى اشتد فيه أذى قريش على الرسول وصحبه ، فـأمر النبـــى ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة ، فبدأ المسلمون يخرجون من مكة متجهين إلـــى المدينة تنفيذا لأوامر النبى ﷺ .

الهجرة إلى المدينة (يثرب) :

قلت أن النبى ﷺ أمر أصحابه بالـــهجرة ، وكـــان أولـــهم أبـــو ســـلمة المخزومى زوج أم سلمة ، ثم تتابع خروج المهاجرين من مكة حتى لم يبق بها إلا أبو بكر وعمر وعلى وصهيب وزيد بن حارثة وبعض المستضعفين .

اجتماع الشر :

وفى تلك الأثناء كان كفار قريش قد اجتمعوا فى دار النـــدوة ؛ ليضعـــوا خطتهم الحربية التى أرادوا بها القضاء على الرسول ﷺ وعلى دعوته ، فتباينت الآراء الرديئة ، فمنهم من قال تنفيه من هنا ، وكان الرد علـــى ذلـك الصلـــف والتجبر ، أنه ربما يجتمع حوله الكثير لحلاوة أسلوبه وعذوبة لسانه ، ومنهم مـــن قال نصفده بالأغلال ، ونحبسه حتى يدركه ما أدرك الشعراء قبله من المـــوت ،

ورد الحاضرون على هذا الرأى بالسلب ، لأن أنصار محمد ﷺ يحبونه أكثر من أنفسهم ، فلو عرفوا بذلك لجاءوا وخلصوه وافتدوه بأرواحهم ، ودارت بيننا وبينهم الحروب .

عندئذ قال لهم طاغيتهم " أبو جهل " نجمع من كل قبيلة شابا قويا ويضربونه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه فى القبائل ، ولا تستطيع بنو عبد مناف أن تأخذ بثأره لأنها لا تقوى على حرب قريش كلها بل ترضى بالدية ، وينتهى عندئذ أمره وأمر دعوته .

ولكن المجتمعين نسوا شيئا مهما ، فإذا كانوا قد عقدوا محكمتهم ضد محمد ﷺ ، فإن محكمة السماء قد سبقتها وصدر الأمر بالهجرة ، وصدق الله العظيم إذ يقول " ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين " . فأعلم سبحانه وتعالى نبيه بما دبر له ، ومن هنا بدأت الهجرة المباركة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة .

أبطال الهجرة :

يأتى فى المقدمة المصطفى ﷺ ، ومن بعده كان " الصديق " رضي الله عنه الذى جهز راحلتين أحسن جهاز ، وكان مع النبى فى كل لحظة ، ثم " على بن أبى طالب " رضي الله عنه الذى بات فى فراش الرسول ﷺ ليفوت الفرصة على الأعداء من ناحية ، ويرد الأمانات إلى أهلها من ناحية ثانية ، ثم " أسماء بنت أبى بكر " التى شقت نطاقها لتربط به فم الجراب الذى بداخله بعض الزاد ، ثم " عبد الله بن أريقط " (الدليل) فى الطريق رغم أنه من كفار قريش ، ثم " عبد الله بن أبى بكر "

الذى كان ينقل أخبار قريش للنبى ﷺ ، ولأبيه ، وكان يبيت فى قريش حتى لا يشك فيه أحد ، وكان دوره مثل دور المخابرات فى العصر الحديث ، ثم " عامر بن فهيرة " الذى كان يقوم بإخفاء أثار الأقدام إلى الغار (غار ثور) بواسطة قطيع الأغنام التى كان يرعاها .

وهكذا نرى أن لكل واحد من الذين شاركوا فى الهجرة دورا محددا ، يدل على حسن التخطيط ، فاتفق سيدنا رسول الله ﷺ مع صديقه الوفى " أبو بكر الصديق "رضي الله عنه على خطة التحرك ، ثم خرج الرسول ﷺ إلى داره ، واتفق مع سيدنا " على "رضي الله عنه على أن ينام مكانه لخداع قريش ، ثم خرج الرسول ﷺ وردد قول الله " **وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون** " . وخرج متوجها إلى غار ثور ، وكان كما قلت قد اتفق مع " أبى بكر الصديق " على ذلك وتوجها معا ، وكان " ابن أريقط " ينتظر براحلتيه المجهزتين السالف ذكرهما .

وحينما أصبح الصبح ولم تجد قريش محمدا ﷺ جن جنونها ، فسهرعت تبحث عنه فى كل مكان ، ورصدت جائزة قيمة لمن يعثر على (محمد وصديقه) ، وكانت قريش فى بحثها وصلت إلى (غار ثور) ولو أبصر أحد كفارها تحت قدميه لوجد النبى ﷺ وصديقه ، لكن الله أعماهم . بل وأخذ أعدى أعداء النبى ﷺ " أمية بن خلف " يبعد لهم اختفاءهما فى (غار ثور) . وهنا عادت قريش تجر أذيال الفشل لأن الله سبحانه وتعالى كتب النجاح للهجرة .

وحاول سراقة بن مالك المدلجى اللحاق بالنبى وصحبه ، لينال الجائزة ، وعندما اقترب منهما ساخت قدما فرسه فى الرمال ، فخرج من كبوته وواصل جهده ، ولكن حدث له ما حدث ، بل ثار الغبار ومن هنا أدرك أنه لم ولن يحصل على شيئ ، عندئذ نادى سراقة على النبى ﷺ وصحبه قائلا أن قومك قد جعلوا فيك الدية وأخبرهما بما يريد بهما الناس ، وعرض عليهما الزاد والمتاع فلم يأخذا شيئا . وقالا له أخف عنا ، فطلب أن يكتب له كتاب أمن ، فأمر النبى أبا بكر بذلك فكتب له ، وبذلك انتهت مشكلة سراقة .

وهذا شيئ يجعل الذهن يتوقد انتبهاها لما حدث ويحدث ، فالنبى ﷺ يخرج دون أن يمسه أذى رغم الاجتماع الطارئ حول منزله ، والحراسة المشددة على باب منزله ، ويواصل سيره رغم البحث عنه فى كل مكان ، وحتى " سراقة بن مالك " الذى استطاع أن يقترب من مكان النبى ﷺ ، والذى كان فرحا بذلك لبلوغه الجائزة التى رصدتها قريش ، نراه بعد الدرس العملى الذى مر به يطلب كتاب آمن من الرسول حقا إنها رعاية الله التى حفظت النبى وصحبه فى طريقهما إلى المدينة التى نورت وأشرقت بدخول المصطفى إليها حتى قال أهلها ابتهاجا بمقدمه ﷺ :

طلع البدر علينا	من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا	ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا	جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة	مرحبا يا خير داع

حقا كان سيدنا محمد ﷺ شرفا ليس للمدينة فحسب وإنما للبشرية كلها ، لأعماله وأفعاله التى ما ينطق فيها عن الهوى . المهم أن النبى ﷺ وصل المدينة، ومما يذكر أنه عندما جاء قباء . أقام مسجدا بها وهو أول بيت أسس على التقوى حتى يصلى الناس فيه ويقيم النبى ﷺ فيه شعائر الدين ، وكان البناء بسيطا أرض فرشها بالحصباء حتى يقضى على أثر مياه المطر به ، وكان البناء لا يزيد على القامة ، ومن فوقه مظلة تقى الناس حر الصيف الشديد ، فكان البناء غاية فى البساطة ، لأن المهم هو تزيين القلوب بالإيمان ، وليس المهم هو تزيين الحوائط وقباء هذه على مقربة من المدينة إذ هى إحدى ضواحيها .

وما أن نزل المهاجرون المدينة إلا وقوبلوا بالترحاب من أهلها الأنصار ، الذين عاملوهم معاملة كريمة ، وصدق الله العظيم إذ يقول : " **والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** " الحشر (٩) .

ومن الأعمال المهمة التى قام بها سيدنا محمد فى المدينة قيامه ﷺ ببناء المسجد لما له من مهمة قصوى فى إقامة الشعائر ، ورعاية مصالح الناس ، وذلك فى المكان الذى بركت فيه نأقته أمام " محلة بنى النجار " ، وكان المكان يملكه غلامان فى حجر " أسعد بن زرارة " فدعا الغلامين لبيع المكان ، ورغم أنهما قالا نهبه لك يا رسول الله ، إلا أنه ﷺ ابتاعه منهما ، وإن دل هذا على شيئ فإنما يدل على عظمة أخلاق الرسول الكريم ﷺ .

بقيت في هذا المقام نقطة هي موضوع الآذان فيجيب أن لا نمر دون ذكرها .

ويروى أنّه تعددت الآراء بخصوص الآذان ، فهناك من قال نرفع راية لإعلام الناس ، واعترض البعض على هذا لأن النيام لم يروا هذه الراية ، وقال الرأى الثانى عند دخول موعد الصلاة نشغل نارا على مرتفع ، ولم يوافق على هذا الرأى أيضا ، ورأى ثالث قال : ننفخ فى الأبواق ، ولم يوافق على هذا الرأى أيضا ، أنه من عادات اليهود ، ورأى رابع قال : ندق النواقيس ، وبالطبع لم يوافق على ذلك لأنها عادة النصارى .

وهناك رأى قال بالنداء عند دخول موعد الصلاة ، وقيل هذا رأى جيد ، وكان أحد المنادين وهو " عبد الله بن زيد " الأنصارى ، أنه رأى بينما هو نائم فى حالة يقظة ، أن شخصا قد عرض له وقال : ألا أعلمك كلمات تقولها عند النداء بالصلاة ؟ قال بلى . فقال له : قل الله أكبر الله أكبر مرتين ، وتشهد مرتين، ثم قل حى على الصلاة مرتين ، وقل حى على الفلاح مرتين ، ثم كبر ربك مرتين ، ثم قل لا إله إلا الله .

وعندما استيقظ من نومه توجه للنبى ﷺ وأخبره بذلك ، فقال إنها لرؤيا حق ، ثم قال له لقن ذلك " بلالا " فإنه أندى منك صوتا ، وبينما " بلال " يؤذن حتى جاءه " عمر " ، وقال له رأيت مثله يا رسول الله ، وكان " بلال " أحد مؤذنى الرسول بالمدينة ، والآخر " عبد الله بن أم كلثوم " .

وهكذا أنشئ المسجد بالمدينة ، وتم معرفة الآذان ، كما قام النبى ﷺ بإنهاء النزاعات والخصومات بين الأوس والخزرج ، وهما قبيلتان عربيتان ، دس

اليهود بينهما كثيرا من السموم ، كما قام النبى ﷺ بإنهاء الخصومات بين اليهود أنفسهم (بنو قريظة ، وبنوالنضير ، وبنو قينقاع) .

فانتشر الأمن والأمان ، وعمت المساواة بين سكان المدينة ، وأصبح الدين هو العامل الوحيد فى تحديد العلاقة بين الحكومة والرعية ، ثم بين أفراد الشعب مع بعضهم فعم الخير ، فلا رشوة ، ولا محسوبية ، ولا تسلط ، ولا تجبر ، الكل سواسية أمام الدين ، والكل يعبد إله واحد ما عدا اليهود طبعا ، وكان لابد بعد ذلك من نشر الإسلام خارج المدينة ، فكانت الغزوات والسرايا ، لأن المسلمين انتقلوا من طور إلى طور جديد .

الغزوات والسرايا :

من خلال ما تقدم رأينا كيف ظل الرسول الكريم ﷺ ثلاثة عشر عاما يدعو فيها قومه إلى عبادة الواحد الديان ، لكن قلوبهم كانت غلفا ، جعلوا أصابعهم فى آذانهم وأصروا واستكبروا استكبارا . بل ولم يكن هذا هو موقفهم فقط ، وإنما آذوا الرسول ﷺ ، وأكثروا الأذى لأصحابه ، وحاول بكل طاقاته أن يعلمهم الإيمان الصحيح بدلا من الخرافات التى عبدوها لكنهم لم يمتثلوا لذلك ، وكادوا للنبى وصحبه وتعقبوهم فى كل كبيرة وصغيرة ، حتى اضطر النبى الكريم فى نهاية المطاف إلى أن يرحل مهاجرا من مكة ، متجها إلى المدينة لعله يجد هناك التربة أكثر صلاحا لازدهار الإسلام ، وبالفعل كانت كذلك .

وطوال الفترة السابقة كان الله سبحانه وتعالى ينزل على المصطفى من الآيات ، ما يقويه على الصبر أمام كل صنوف الأذى التى تعرض لها ، ومن ذلك قول الحق

تبارك وتعالى : " فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم " . الأحقاف (٣٥)

كما كان الله سبحانه وتعالى كثيرا ما يقص على النبي ﷺ من أنباء إخوانه المرسلين من قبله ، ليثبت به فؤاده ، لكن شدة الأذى كما قلنا ألجأت النبي وصحبه إلى الهجرة تاركين بلدهم إلى بلد أخرى .

وهنا كان لابد وأن يتغير الموقف ، ففي الطور الأول كان صبرا على الأذى ، ولكن بعد الهجرة كان هناك إذن بالقتال إذ قال جل شأنه " أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله " . الحج (٣٩)

وعلى ذلك فقد شرع الجهاد والقتال ، ولكن فلسفته أنه في سبيل الله ليس إلا ، وليس بقصد العدوان أبدا ، ولا للنيل من الآمنين ، ولا بقصد الاستعلاء ، ولا من أجل الدنيا ، وإنما شرع الجهاد في سبيل الله ، ولرد عدوان المعتدين على المسلمين .

وفي ذلك قال الحق تبارك وتعالى في سورة البقرة : " وقاتلوا في سبيل الله يقاتلونكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ، فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم ، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين " (١٩٠-١٩٣)

وتوضح الآيات الكريمات ، أن المعنى بالمقاتلة هنا هو قريش ، لما أقدمت عليه من عدوان وتنكيل بالمسلمين ، وهى عظمة ما بعدها عظمة فلا عدوان إلا على من اعتدى ، يالها من عدالة تفتقدها الأمم المتحضرة الآن ، بعد فوات أربعة عشر قرنا من الزمان على تلك التعاليم الخالدة .

ولكن الإسلام دين قوة ودين ردع ، فعندما تمالأ على المسلمين غير أهل مكة من مشركي العرب ، واتحدوا عليهم مع الأعداء ، أمر الله تعالى بقتال المشركين كافة . إذ قال جل شأنه وتعالت عظمته فى سورة التوبة : " **وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة** " . آية (٣٦)

وعلى ذلك صار الجهاد عاما لكل من ليس له كتاب من الوثنيين حتى يثوبوا إلى رشدهم ، مصداقا لقول الرسول ﷺ " أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فإذا قالوها : عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله " .

وعندما رأى المسلمون من اليهود خيانة للعهود أمر الله بقتالهم فقال تعالى فى سورة الأنفال . " **وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين** " . (٥٨)

ومن هنا فقتالهم واجب حتى يدينوا بالإسلام أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ليأمن المسلمون جانبهم ، وبالتالى كان قتال رسول الله للأعداء يسير وفق محاور رئيسة كالآتى :

١-اعتبار مشركي قريش محاربين لأنهم بدأوا بالعدوان ، فصار للمسلمين قتالهم ومصادرة تجارتهم حتى يأذن الله بفتح مكة .

٢-متى ظهر من اليهود خيانة وتحيز للمشركين وجب قتالهم حتى يؤمن جانبهم.

٣-متى اعتدت أى قبيلة من العرب على المسلمين أو ساعدت قريشا قوتلت حتى تدين بالإسلام .

٤-كل من نادى بعداوة من أهل الكتاب كالنصارى مثلا قوتل حتى يسلم أو يعطى الجزية .

٥-كل من أسلم فقد عصم دمه وماله إلا بحقه والإسلام يجب ما قبله .

ولو دققنا النظر فى هذه المحاور لقلنا هيهات وهيهات لما يحدث الآن فى مجتمع القرن الواحد والعشرون ، والذى لا ضابط له ولا رابط والاعتداء أصبح من سماته على الدول الضعيفة والصغيرة ، والقتل وسفك الدماء أصبح فيه شيئا عاديا، فيا ليت العالم كله يطبق تعاليم الإسلام فى باب الحروب حتى ينجو من عثراته .

ومن خلال ما تقدم يمكن أن نقول باختلاف الفكر بين مشركى مكة ، وبين المسلمين الذين هاجروا إلى المدينة ، إذ أصبح على المسلمين رد عدوان مكة عليهم ، ومن هنا سيبدأ القتال . ولا سيما وأن النبىﷺ ، قرر معاقبة قريش اقتصاديا بمصادرة تجارتها لأن قريشا كان لابد لها من المرور على دار الهجرة (المدينة) فى طريقها إلى الشام ، وقد قصد الرسول بذلك أن يؤثر على اقتصادهم ردا على ما فعلوه فربما يرتدعوا ، أو يثوبوا إلى رشدهم .

وبناء على ذلك كانت الغزوات والسرايا ، وقبل أن نتحدث عن المعارك التى اندلعت بين مكة المكرمة والمدينة المنورة ، لابد من توضيح معنى الغزوة والسرية .

الغزوة والسرية :

الغزوة : هى التى حضرها الرسول ﷺ ، أما السرية : فهى التى أرسلها رسول الله ولم يحضرها . وقد أطلق على سرية مؤتة جوازا غزوة مؤتة ، رغم عدم حضور النبى ﷺ فيها ، لكثرة الأعداد التى اشتركت فيها من باب إعلاء قدرها . ونسترسل الآن فى الغزوات والسرايا حتى غزوة بدر .

ففى العام الأول للهجرة النبوية الشريفة أرسل الرسول ﷺ عمه " حمزة بن عبد المطلب " فى ثلاثين رجلا من المهاجرين ، وعقد له لواء أبيض حمله "أبو مرثد " ، وذلك لاعتراض عير لقريش عائدة من الشام ، فيها " أبو جهل " وثلاثمائة من المشركين ، فسار حمزة حتى وصل ساحل البحر من ناحية العيص من نواحى المدينة ، وهناك وجد العير .

فلما تصافا للقتال حجز بينهم " مجدى بن عمرو الجهنى " ، فأطاعوه وانصرفوا ، ولقد شكر النبى ﷺ هذا التصرف " لمجدى " ، لقلة عدد المسلمين وزيادة عدد المشركين . تلك سرية ، وفى شوال من نفس العام أرسل النبى ﷺ " عبيدة بن الحارث ابن عم حمزة " فى ثمانين راكبا من المهاجرين ، وعقد له لواء كسابقه حمله " مسطح بن أثاثة " ، ليعترض عيرا لقريش فيها مائتا رجل ، فالتقوا بالعير ببطن رابغ ، وكان بينهم الرمى بالنبال ، ثم خاف المشركون أن يكون للمسلمين كمين فانزموا ، ولم يتعقبهم المسلمون ، وفر من المشركين إلى المسلمين " المقداد بن الأسود ، وعتبة بن غزوان " وكانا قد أسلما .

غزوة ودان :

وفى العام الثانى للهجرة ، ولاثنى عشرة ليلة خلت من المحرم خرج رسول الله ﷺ من المدينة ، مستخلفا عليها " سعد بن عبادة " ، ليعترض عيرا لقريش فسار حتى بلغ ودان وهى قرية بين مكة والمدينة على بعد ستة أميال من الأبواء ، وقد حمل لواءه عمه " حمزة " ، ولم يحدث فى هذه الغزوة قتال لأن العير قد سبقت ، ولكن فى هذه الغزوة صالح النبى ﷺ بنى " ضمرة " على أمان لأنفسهم ، ولهم النصر على من رامهم ، وعليهم نصر المسلمين إذا دعوا ، وعاد المسلمون إلى المدينة بعد حوالى خمس عشرة ليلة .

غزوة البواط:

لم يمضى على رجوع النبى ﷺ غير قليل من ودان ، حتى علم بأن هناك عيرا لقريش آيبة من الشام ، فيها " أمية بن خلف " ومائة من قريش ، وألفان وخمسمائة بعير ، فسار إليها فى مائتين من المهاجرين فى شهر ربيع الأول ، وحمل لواءه " سعد بن أبى وقاص " ، فسار حتى بلغ "بواط" ، على مقربة من المدينة جهة "ينبع" ، فوجد العير قد فاتته ، فرجع ولم يلق كيدا .

غزوة العشيرة :

وعقب عودة النبى ﷺ من بواط خرجت قريش بأعظم عير لها وعلى رأس هذا العير " أبو سفيان " ، ومعه بضعة وعشرون رجلا ، فخرج لها رسول

الله ﷺ فى جمادى الأولى ومعه مائة وخمسون من المهاجرين ، تاركا على المدينة " أبا سلمة بن عبد الأسود " ، وقد حمل لواءه عمه " حمزة " ، ولم يزل سائرا حتى بلغ العشيرة (قرية قرب ينبع) ، وكانت العير قد مضت ، وحالف النبى فى هذه الغزوة بنى "مدلج" وحلفائهم ، عاد بعد ذلك إلى المدينة .

غزوة بدر الأولى :

بعد عودته ﷺ بقليل جاء كرز بن جابر الفهرى وأغار على سرح المدينة وهرب ، فخرج النبى ﷺ فى طلبه ، مستخلفا على المدينة " زيد بن حارثة الأنصارى " ، حاملا لواءه " على بن أبى طالب " ، فسار حتى بلغ سفوان ، وهو واد من ناحية بدر ، وفاته كرز فلم يلق حربا وتسمى هذه الغزوة ببدر الأولى .

سرية عبد الله بن جحش :

وفى رجب من هذه السنة أرسل سرية قوامها ثمانية رجال عليهم عبد الله بن جحش ، وأعطاه كتابا مختوما لا يفتحه إلا بعد مسيرة يومين ، فنفذ عبد الله وصية الرسول ﷺ ، إذ فتح الخطاب بعد يومين ، فإذا فيه : إذا نظرت كتابى هذا : فامض حتى تنزل نخلة فترصد بها قريشا وتعلم لنا أخبارها ، ولو تساءلنا لماذا لم يخبرهم النبى ﷺ وهم بالمدينة ، فذلك حتى لا يشيع الخبر ، وينكشف أمرهم لدى الأعداء ، من المنافقين واليهود فترصدهم لقريش . لا سيما وأن عدد السرية كان قليلا لا يستطيع المقاومة .

ثم سار " عبد الله " إلى مهمته ، وقد تخلف " سعد بن أبى وقاص ، وعتبة بن غزوان " عن الركب لأنهما أضلا بعيرهما الذى كانا يتعقبانه ، وسار الباقون حتى وصلوا نخلة فمرت بهم عير قريش متجهة إلى مكة فيها " عمرو بن الحضرمى ، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة ، وأخوه نوفل ، والحكم " . فاتفق المسلمون على أن يحملوا عليهم ويأخذوا ما معهم ، فتم لهم ذلك فى آخر يوم من رجب من العام المذكور ، فقتلوا " عمرو بن الحضرمى " وأسروا " عثمان والحكم " وهرب " نوفل " واستاقوا العير . وهى أول غنيمة غنمها المسلمون من أعدائهم قريش ، ثم رجعوا ولم يتمكن المشركون من اللحاق بهم .

فلما قدم المسلمون المدينة ، وشاع الخبر عن قتالهم للمشركين وكان ذلك فى الأشهر الحرم ، عابتهم قريش واليهود لذلك وعنقهم المسلمون ، وقال ﷺ : ما أمرتكم بقتال فى الأشهر الحرم ، فندموا لهذا الموقف ، فأنزل الله قوله تعالى فى سورة البقرة : " يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل " . (٢١٧)

فسرى عنهم وقد طلب المشركون فداء أسيريهما فقال ﷺ ، حتى يرجع " سعد وعتبة " ، فلما رجعا قبل ﷺ الفدية فى الأسيرين . فأما " الحكم بن كيسان " فأسلم وحسن إسلامه مع المسلمين ، وأما "عثمان" فلحق بمكة كافرا .

وإذا ما نظرنا إلى ما حدث من سرايا وغزوات ، لوجدنا أنها كانت متعددة قبل غزوة بدر الكبرى والمشهورة ، وذلك حتى يعود الرسول المسلمين على القتال وارتياد الأماكن للتعرف عليها ، كما أن النبى ﷺ أعطى لنا درسا فى

نظم الحكم الحديثة ، حينما كان يولى على المدينة أحد الأشخاص فى غيابه ، كما أنه أعطى لنا درسا بليغا فى القيادة ، إذ خرج بنفسه فى عدة غزوات مثل ودان، والبواط ، والعشيرة ، وبدر الأولى ، حتى يحث المسلمين على عدم التقاعس . بل الخروج فى سبيل الله .

وفضلا عن ذلك فإنه ﷺ كان يدفع بالمهاجرين فى السرايا ، لأنهم هم الذين طردوا من ديارهم هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ينمى روح الجهاد والتضامن بين الأنصار الذين كان عليهم مساعدة ومؤازرة ونصر إخوانهم المهاجرين على عدوهم ، وبالإضافة إلى ما تقدم : صالح النبى بنى ضمزة ، وبنى مدلج ، حتى يأمن جانبهم إذا اندلع القتال .

حقا خطط النبى ﷺ تماما تخطيطا يدل على الحنكة والدراية ، والذكاء قبل أن يخوض المسلمون ، المعارك الكبرى ، حتى الأسرار العسكرية لم ينسها النبى ﷺ ، وذلك فى الكتاب الذى أعطاه " لعبد الله بن جحش " ليختبر مدى السرية أثناء القتال ، فكان النبى ﷺ موسوعة فى شتى المعارف والعلوم .

وقبل غزوة بدر الكبرى تم تحويل القبلة ، إذ كان النبى ﷺ يستقبل بيت المقدس مدة ستة عشر شهرا ، وكان يحب أن تكون قبلته الكعبة ، وأخذ يقلب وجهه فى السماء داعيا الله بذلك . فبينما هو فى صلاته إذ أوحى الله إليه بتحويل القبلة إلى الكعبة فتحول إليها .

وفى شهر شعبان من السنة الثانية ، أوجب الله على المسلمين صوم رمضان ، وكان النبى ﷺ قبل ذلك يصوم ثلاثة أيام من كل شهر ، وكلنا يعرف

أن الصيام من دعائم الدين ، وقد فرض على المسلمين قبل غزوة بـــدر الكـبرى التى انتصر فيها المسلمون وكانت نقطة تحول كبرى فى تاريخهم .

غزوة بدر الكبرى عام ٢هـ ١٧ رمضان :

الزمان : السابع عشر من رمضان عام ٢هـــ ، المكان : أرض بدر علـى مقربة من المدينة . وأما عن الحدث فنقول : ترقب النبىﷺ عودة عير قريـــش من الشام ، وما أن علم بعودتها ، حتى ندب إليها أصحابه قائلا : هذه عير قريش فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها ، فأجاب قوم وتقاعس آخرون ، ظنا منـــهم أن النبى ﷺ لم يرد حربا ، ثم خرج المسلمون لثلاث ليال مضت من رمضان ، بعد أن ولى النبى ﷺ على المدينة " عبد الله بن أم مكتوم " وكان المسلمون حوالـــى ثلاث مائة وثلاثة عشر رجلا من الأنصار ، مائتان ونيف وأربعون ، والباقى من المهاجرين ، ومعهم فرسان وسبعون بعيرا ، وكان حامل اللواء " مصعـــب بـــن عمير العبدرى " ، وعندما علم " أبو سفيان " بخروجهم ، أرســـل علـــى الفـــور (ضمضم) إلى قريش يستنفرها ضد المسلمين على الرغم من نجاه العير وسلامة التجارة

وما أن بلغ النبأ قريش حتى أخذتها الحمية ، وخرجت بخيلها وخيلائـــها ، ولم يتخلف من أشرافهم إلا " أبو لهب بن عبد المطلب " الذى أرسل بدلا منـــه " العاص بن هاشم بن المغيرة " . وكان عدد قريش قد ناهز التســـعمائة وخمســين رجلا ، معهم من الفرسان مائة ، بالإضافة إلى سبعمائة بعير ، وكان النبىﷺ قد استعرض الجيش ، فرد من ليس له قدرة على الحرب ، ثم أرسل اثنين يتجسسان الأخبار عن العير ، وعندما وصل ﷺ إلى (الروحاء) على بعـــد ثلاثيـــن ميـــلا

جنوب غرب المدينة ، جاءه الخبر بمسير قريش لمنع عيرهم ، وجاءه مخبراه بأن العير ستصل بدر غدا أو بعد غد ، فجمع النبى ﷺ سادة الجيش ، وقال لهم (أيها الناس إن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين أنها تكون لكم العير أو النفير) المكسب أو القتال ، فتبين له ﷺ أن بعضهم يريدون غير ذات الشوكة وهى العير ، ليستفيدوا بمالها ، وقالوا هلا ذكرت لنا القتال فنستعد ؟ وجاء مصداق ذلك فى قوله تعالى فى سورة الأنفال " **وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم** " . (٧)

ثم قام " المقداد بن الأسود " قائلا : يا رسول الله امض لما امرك الله فو الله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) .

ولكن نقول اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فدعا له بخير ، ثم قال ﷺ ، أشيروا على أيها الناس ، وهو يريد الأنصار بعد سماع رأى المهاجرين ، وذلك لأن بيعة العقبة ربما يفهم منها أنه لا تجب على الأنصار نصرة النبى ﷺ إلا وهو بين أظهرهم ، وعندئذ قال " سعد بن معاذ" سيد الأوس، كأنك تريدنا يا رسول الله ؟ فقال ﷺ أجل (نعم) ، فقال " سعد " : قد آمنا بك وصدقناك وأعطيناك عهودنا فامض لما أمرك الله فو الله الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لنخوضه معك .. فإنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر على بركة الله ، فأشرق وجه النبى ﷺ . وقال كما جاء فى البخارى : ابشروا والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم ، أدرك القوم عندئذ أن الحرب واقعة لا محالة .

وقد قال أبو جهل : لا نرجع حتى نحضر بدرا ، فنقيم فيه ثلاثا ننحر الجزور ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتسمع بنا العرب فلا يزالوا يهابوننا أبدا ، وتغنى القيان .

فقال الأخنس بن شريق الثقفى ، ارجعوا يا قوم ، فقد نجى الله أموالكم ، وكان كلامه لبنى زهرة ، فرجعوا ، ثم سار جيش قريش حتى وصل وادى بدر فنزل المشركون عدوته (أى جانبه) القصوى عن المدينة فى أرض سهلة لينة ، أما جيش المسلمين فعندما اقترب من بدر ، أرسلﷺ عديا بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ليعرفا الأخبار ، فصادفا سقاة لقريش فيهم غلامان أحدهما لبنى الحجاج ، والآخر لبنى العاص السهميين فأتيا بهما ، وكان الرسولﷺ قائم يصلى وقام " على والزبير " بسؤال الغلامين عن أنفسهما فقالا : نحن سقاة لقريش ، بعثونا نسقيهم الماء ، فضرباهما لأنهما ظنا أن الغلامين لأبى سفيان ، فقال الغلامان عندئذ نحن لأبى سفيان فتركاهما .

وعندما أتم الرسول صلاته قال : إذا صدقاكم ضربتوهما ، وإذا كذباكم تركتموهما ؟ صدقا والله إنهما لقريش ، ثم قال ﷺ لهما أخبرانى عن قريش ؟ فقالا : هم وراء هذا الكثيب . فقال لهما : كم هم ؟ فقالا لا ندرى قال كم ينحرون من الإبل كل يوم ؟ قالا : يوما تسعا ويوما عشرا . قال ﷺ القوم ما بين التسعمائة والألف ، ثم سألهما عمن فى جيش قريش من أشرافها ، فعددا له الأشراف فقال النبى ﷺ هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها .

بعد ذلك واصل جيش المسلمين تقدمه حتى نزلوا بعروة الوادى الدنيا من المدينة بعيدا عن الماء فى أرض سبخة ، وبذلك أصبح المسلمون عطاشى ، فضلا

عن احتياجهم الماء فى غسل أبدانهم ، ووضوئهم وبدأ الشيطان يوسوس لهم ، وعندئذ قال لهم النبى ﷺ ما ينتظر المشركون منكم إلا أن يقطع العطش رقابكم ، ويذهب قواكم فيتحكمون فيكم كيف شاءوا .

وكانت رحمة الله واسعة بالمسلمين ، إذ أنزل الله فى تلك الآونة الغيث ، فشربوا ، واغتسلوا وتوضاؤوا ، وملأوا أسقياتهم ، ثم لبدت الأرض حتى ثبتت عليها الأقدام ، على الرغم من أن المطر كان مصيبة على المشركين ، إذ أوحل لهم الأرض ، حتى لم يعودوا قادرين على الارتحال . ثم سار جيش المسلمين حتى نزل أدنى ماء من بدر فقال عندئذ " الحباب بن المنذر " ، وكان مشهورا بجودة الرأى : يا رسول الله أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ فقال ﷺ بل هو الرأى والحرب والمكيدة ، فقال يا رسول الله ليس لك هذا بمنزل فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم ، فإنى أعرف غزارته فننزله ، ونغور ما عداه من الآبار ، ثم نبنى عليه حوضا فنملؤه ماء فنشرب ولا يشربون فقال له النبى ﷺ لقد أشرت بالرأى ، وهكذا يعلمنا رسول الله ﷺ كيف تكون المشورة ، ثم نهض ﷺ بالمسلمين حتى أدنى ماء من القوم ، وتم بناء الحوض على القليب .

بعد ذلك قال " سعد بن معاذ " سيد الأوس : يانبى الله ألا نبنى لك عريشا تكون فيه ، ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا ، فإن نصرنا الله وأظهرنا فذاك ما نتمناه ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا فقد تخلف عنك أقوام يا نبى الله ما نحن أشد حبا لك منهم ، ولا رغبة فى الجهاد منهم أيضا .

ثم بنى للرسول ﷺ عرشا على تل مشرف على ميدان الحرب ، ولمـــا اجتمع المسلمون عدل النبى ﷺ صفوفهم حتى صاروا كالبنيان المرصوص ، بعد ذلك نظر ﷺ لقريش وقال : اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك ، وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى به .

وقد وقع بعض الخلاف بين المشركين من أجل العودة وإنهاء الموقف لكن " أبا جهل " قال : والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد .

وقد خرج من صفوف المشركين " الأسود بن عبد الأسد المخزومـــى " ، وقال أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأموتن دونه ، فخرج إليه " حمزة بن عبد المطلب " وضربه ضربة قطعت ساقه فوقع على ظهره وزحف حتـــى الحـــوض واقتحمه ليبر بوعده فعاجله " حمزة " بضربة ثانية فقتله .

المبارزة :

وبالموقف السابق للأسود بدأت نذر الحـــرب بيـــن الطرفيـــن ، وكـــانت المبارزة : إذ خرج ثلاثة من صفوف المشركين هم " عتبة وشيبة ابنى ربيعـــة ، والوليد بن عتبة " ، وكان عتبة بين أخيه وابنه وطلبوا أكفاءهم ، فخرج لهم ثلاثة من الأنصار ، فقالوا لا حاجة لنا بكم ، إنما نريد أكفاءنا من بنى عمومنا ، فأخرج لهم النبى ﷺ :" عبيدة بن الحارث للأول ، وحمزة بن عبـــد المطلـــب للثـــانى (شيبة)، وعلى بن أبى طالب الثالث "الوليد" ، وقد أجهز " حمزة وعلـــى " علـــى خصميهما، بينما " عبيدة وعتبة " ضرب كل منهما الآخر بضربة مبرحة ، وهنـــا

حمل " حمزة وعلى " على " عتبة " وأجهزا عليه هو الآخر ، وبتلك المبارزة خسرت قريش ثلاثة وخسر المسلمون واحدا ، إنها بداية طيبة مبشرة بالخير .

أيقن المسلمون بعد المبارزة بالقتال الذى لابد منه ، فوقف النبى ﷺ بينهم يعدل من صفوفهم بقضيب فى يده ، وبينما هو ﷺ يعدل الصفوف إذا " بسواد ابن غزية " كان خارج الصف ، فضربه الرسول بالقضيب فى بطنه حتى يعيده للصف ، وقال استقم " ياسواد " . فقال " سواد " أوجعتنى يا رسول الله ، وقد بعثت بالحق والعدل فأقدنى (أى دعنى آخذ منك حقى) .

فما كان من النبى ﷺ إلا أن كشف بطنه الشريفة ، وقال " لسواد " استقد أى خذ حقك ، فاعتنقه " سواد " وقبل بطنه ، وتساءل النبى ﷺ عن ذلك فقال " سواد " أردت أن يكون آخر عهدى بالدنيا أن يمس جلدى جلدك فدعا له النبى بالخير .

وصايا النبى ﷺ للمقاتلين :

قال ﷺ لا تحملونى حتى آمركم ، وإن اكتنفكم القوم فانضحوهم بالنبل ، ولا تسلوا سيوفكم حتى يغشوكم ، ثم حضهم على الصبر والثبات ، عاد بعد ذلك إلى عريشه ومعه " أبو بكر "رضي الله عنه وحارسه " سعد بن معاذ "رضي الله عنه .

وتلك سياسة عسكرية ماهرة إذ طلب ﷺ من المسلمين أن يستخدموا النبل فى موقف وهم بعيد عنهم أو فى مكان أعلى نسبيا ، أما عند الالتحام فالقتال بالسيف ، خوفا من رفع السيوف ثم تتساقط الأمطار ، ويطول الانتظار فتصدأ ، وبالتالى لا تحقق الغرض المرجو .

بعد ذلك خرج النبى قائلا (سيهزم الجمع ويولون الدبر) . وما أن مرت لحظات حتى بدأ القتال وحمى الوطيس ، وقد أيد الله المسلمين بالملائكة لتثبيت فؤادهم ، وفى ذلك قال الحق تبارك وتعالى فى سورة الأنفال " **إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين** " (٩) وقوله : " **إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا . سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان** " (١٢) .

وهكذا كانت الملائكة بشرى واطمئنان للمسلمين ليعلموا وعد الله الذى لا يخلف وعده ، فنصر المسلمون على المشركين لإعلاء كلمته وليزداد تمسك المسلمين بدينهم .

وقد انجلت المعركة عن هزيمة ساحقة للمشركين ؛ موت سبعون ، وأسر مثلهم سبعون أيضا ، ومن المسلمين حوالى أربع عشر رجلا ، ست من المهاجرين ، وثمان من الأنصار .

ومن أشهر قتلى المشركين " حنظلة بن أبى سفيان ، وأبو جهل بن هشام " إذ افخنه صبيان هما : " معوذ ، وعوف " ابنا " عفراء " ، واحتز رأسه " عبد الله ابن مسعود " جزاء ما فعل . ولما رآه النبىﷺ قال هذا فرعون هذه الأمة .

كما قتل " نوفل بن خويلد ، وأمية بن خلف " ، وقد اشترك " بلال " فى قتله ، وغير ذلك كثيرون .

أما الأسرى فقلت سبعون أيضا . قتل منهم اثنان هما : " عقبة بن أبى معيط ، والنضر بن حارث " ، وكانا من أشد المستهزئين بالرسول والمسلمين .

معاملة الأسرى وموقفهم :

بالطبع عومل الأسرى معاملة طيبة ، وكان لموقفهم رأيان : أحدهما يقترح إخلاء سبيلهم نظير فدية يدفعونها وصاحبه " ابو بكر " ، والآخر يقترح قتلهم والإجهاز عليهم حتى لا يكونوا على المسلمين ثانية ، وصاحبه " عمر " ، وقد مال النبى ﷺ لرأى " أبى بكر "رضي الله عنه الذى قال بأخذ الفدية نتقوى بها ، وربما يصلح الله من أمرهم .

وهنا يجب أن نفهم أن الرأيين على صواب لأن صاحب كل منهما إنما قصد المصلحة العليا ، للمسلمين ، وقصد العمل فى سبيل الله " أبو بكر " يحاول أخذ الأموال للتقوى بها ، وإعطاء فرصة للكفار لعلهم يرتدعون ، " وعمر " يرغب فى بتر الداء حتى لا يعوق المسيرة الإسلامية ، فكلاهمارضي الله عنهما كانا على صواب .

وقد تم فداء الأسرى ، وعامل النبى ﷺ الجميع معاملة واحدة حتى يعلمنا فن الإدارة ، فالقريب مثل البعيد فلا محسوبية لأحد ، وإنما العمل كله من أجل إعلاء كلمة الدين .

وهكذا رأينا كيف انتصر المسلمون وعددهم لا يتجاوز ثلاث مائة وثلاث عشرة على عدو وصل عدده إلى الألف ، بالإضافة إلى الاختلاف فى أدوات القتال : فرسان وسبعون بعيرا .. مقابل مائة فرس وسبعمائة بعير ، لكن التأييد من الله ، إذ أيد المسلمون بالملائكة .

وقد يسأل سائل لماذا أيد الله المسلمين بالملائكة ، والإجابة واضحة ، فتلك أول مواجهة بين المسلمين والمشركين : المسلمون تركوا ديارهم تحت ضغط

المشركين ، ولا بد لهم من رد العدوان ، والثأر لأنفسهم ليس هذا من أجل الدنيا وإنما من أجل إعلاء كلمة الله ، فلو انتصرت قريش لشك الكثيرون فى الدعوة الإسلامية ، فكان لابد للمسلمين من الانتصار والتأييد كان من الله . إذ قال تعالى: " ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة " أى قليلى العدد . ليكون ذلك دليلا دامغا على صدق الدعوة الإسلامية والداعى لها . وأصبح يوم السابع عشرة من رمضان يوما يتذكر فيه المسلمون هذا الانتصار .

ما بين بدر وأحد :

لم تهدأ الأحوال بعد غزوة بدر وهزيمة قريش ، وإنما ازدادت الأمور توترا ، وحدثت عدة أحداث نذكر منها : غزوة بنى قينقاع ، وجلاؤهم ، وغزوة السويق ، وقتل كعب بن الأشرف ، وغزوة غطفان ، وغزوة بحران ، وسرية زيد بن حارثة . وعنها نقول .

(١) غزوة بنى قينقاع :

اليهود هم دائما اليهود ، فبعد غزوة بدر بدعوا يظهرون التمرد على المسلمين ، خاصة يهود بنى قينقاع ، إذ أنهم نبذوا المعاهدة التى كانت بينهم وبين المسلمين ، ليظهروا مكنون حقدهم فقاموا بالاعتداء على امرأة من الأنصار ، وهذا الأمر جعل المسلمون يأخذون حذرهم منهم لخطورة وجودهم فى المدينة أى داخل نسيج الدولة الإسلامية ، وقد جاء قول الحق تبارك وتعالى : " **وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين** " الأنفال (٥٨)

هذا وقد استدعى رسول الله رؤساءهم ، وحذرهم عاقبة البغى والنكث ، فكان ردهم فى منتهى السوء والكبرياء ، إذ قالوا : يا محمد ﷺ لا يغرنك ما لقيت

من قومك ، فإنهم لا علم لهم بالحرب ، ولا فن القتال ، ولو لقيتنا لتعلمّن أنا نحن الناس . وكان بنو قينقاع من أشجع اليهود .

وقد جاء قول الله ﷻ في سورة آل عمران : " قُل لِلذِينَ كَفَروا ستُغلبون وتُحشرون إلى جهنم وبِئسَ المِهَادُ " ، وعند ذلك تبرأ من حلفهم " عبادة بن الصامت " أحد رؤساء الخزرج ، ولكن تشبث بالحلف "عبد الله بن أبى". وقال : إنى رجل أخشى الدوائر فأنزل الله تعليماً للمسلمين فى سورة المائدة قائلاً ﷻ : " يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، إن الله لا يهدى القوم الظالمين فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين " . آية (٥١-٥٢)

وعندما أعلن يهود بنى قينقاع عداوتهم ، وتحصنوا فى حصونهم ، سار إليهم ﷺ فى نصف شوال من السنة الثانية ، حاملاً لواءه عمه " حمزة " ، تاركاً على المدينة " أبا لبابة الأنصارى " . وحاصرهم خمس عشرة ليلة ، ولما رأى يهود بنى قينقاع أنه لا قبل لهم بالمسلمين ، وأدركهم الرعب طلبوا من الرسول أن يخلى سبيلهم ليخرجوا من المدينة بنسائهم وزراريهم تاركين أموالهم . فقبل الرسول ﷺ منهم ذلك ، ووكل عبادة ابن الصامت فى تنفيذ المهمة وأمهلهم ثلاث ليالى ، فتم جلاؤهم إلى أذرعات وهى بلدة بالشام ، ولم يحل عليهم الحول إلا هلكوا .

(٢) غزوة السويق*:

كان أبو سفيان متهيجاً لأنه لم يشاهد بدراً التى قتل فيها ابنه وأقربائه ، فحلف ألا يمس الماء رأسه حتى يغزو محمداً ، وحتى يبر بقسمة خرج بمائتين من أصحابه متجهاً إلى المدينة ، وعندما اقترب منها أراد أن يقابل يهود بنى النضير ليهيجهم ويستعين بهم ضد المسلمين ، فأتى سيدهم " حييى بن أخطب " فلم يقابله فأتى " سلام بن مشكم " فأذن له واجتمع به ، ثم خرج من عنده وأرسل رجالاً من قريش إلى المدينة حرقوا بعض النخل ، وقتلوا أنصارياً وجدوه ، وعندما علم الرسولﷺ بذلك خرج فى أثرهم فى مائتين من أصحابه فى الخامس من ذى الحجة ، تاركاً على المدينة " بشير بن المنذر " ، ولكن المسلمين لم يلحقو بهم ، لأنهم هربوا ، وخفّفوا حملهم بإلقائهم جرب السويق ، فأخذه المسلمون ، وسميت الغزوة بهذا الاسم لذلك .

(٣) قتل كعب بن الأشرف اليهودى (عام ٣هـ) :

استهل المسلمون العام الثالث الهجرى بقتل هذا اليهودى ، الذى طالما حرض على المسلمين ، وأعان عليهم ، وهو " عظيم بني النضير " ، ولقد كُلّف بقتله " محمد بن مسلمة الأنصارى " الذى ذهب إليه مع بعض أصحابه وتمكن من استدراجه حتى ينفذ أصحابه المهمة ، وبقتله أراح الله المسلمين من ذلك اللعين الذى طالما سب المسلمين وأعان عليهم ، كما قتل يهودى آخر اسمه " أبو عفك " وكان مثل " كعب " فى الشر والخبث .

---

* السويق هو : مطحون الحنطة أو الشعير وكان يؤكل باللبن والعسل.
وقد طرح القوم ما معهم من السويق فسمت الغزوة بذلك .

(٤) غزوة غطفان :

لقد نما إلى علم الرسول ﷺ ، أن بنى ثعلبة ومحارب من غطفان تجمعوا برئاسة رئيس منهم اسمه " دعثور " يريدون الغارة على المدينة ، فخرج الرسول ﷺ لمنع هذا الاعتداء ، وكان معه أربعمائة وخمسين رجلا فى الثانى عشر من ربيع الأول عام ٣هـ . وقد ترك على المدينة " عثمان بن عفان " ، ولما علم المعتدون بخروج الرسول إليهم هربوا إلى رؤوس الجبال ، وواصل المسلمون سيرهم حتى وصلوا إلى ماء يسمى " ذا أمر " فعسكروا به ، ويبدو أنه كان هنالك مطر ، إذ تذكر المصادر أن النبى ﷺ ، قد نزع ثوبه وهو تحت ظل شجرة يبحففه من من الماء ، وكان المسلمون قد تفرقوا للراحة .

وقد لمح " دعثور " النبى ﷺ تحت الشجرة فوقف على رأسه ، وقال ما يمنعك منى الآن ، فقال الرسول ﷺ (الله) فأصابت الرجل رعبة اسقطت السيف من يده ، فأمسكه الرسول ﷺ وقال للرجل ما يمنعك منى الآن . قال : لا أحد ، فعفا عنه الرسول ﷺ ، فأسلم ودعا قومه للإسلام ، وحول الله قلبه من عداوة الله ورسوله إلى محبته ، وجمع الناس لنصرة الإسلام . سبحانه (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) ، فبالمعاملة الحسنة دائما يكسب الإنسان .

غزوة أحد :

نواصل حديثنا عن الغزوات ، وقد وصلنا إلى غزوة أحد وعنها نقول :

الزمان : شوال عام ثلاثة من الهجرة النبوية الشريفة فى منتصف الشهر .

المكان : على مقربة من جبل أحد .

أما عن الغزوة وأسبابها فنقول : لما انتصر المسلمون فى غزوة بدر على المشركين عظم عليهم المصاب ، وأرادوا أن يثأروا لكبريائهم الجريح ، فـــالتفوا حول " أبى سفيان " للثائر من المسلمين .

وتذكر المصادر أن قريش قد تحركت بقواتها فى منتصف شوال تقريبـــا من العام المذكور بحدها وحديدها ، بأبنائها ، ومن تابعها من القبائل الأخـــرى ، خرجوا ومعهم نساءهم حتى يثيرون الحمية فيهم ، وتقدم الركب سادة قريش حتى نزلوا بالجهة المقابلة للمدينة ، وكان عددهم يربوا على الثلاثة آلاف مقاتل .

الرأى والمشورة :

وكان من رأى الرسول ﷺ أن يبقى المسلمون بالمدينـــة ، ثـم يـترك الفرصة للمشركين حتى يدخلوا المدينة ويكون القتال ، وكان " عبد الله بــن أبــى ابن أبى سلول " يرى أيضا هذا الرأى .

لكن الشباب ، ومن لم يحضرو بدرا رأوا الخروج لقريش حتى لا يتصفوا بالجبن ، عندئذ قرر الرسول ﷺ النزول على رغبتهم ، فلبس لامتـــه واســتعد للخروج . وبالفعل خرج الرسول ﷺ وصحبه فى ألف من المقاتلين ، وعندمـــا وصل إلى الشوط مكان بين المدينة وأحد ، انخذل عنه " عبد الله ابن أبـــى " رأس المنافقين بثلث الناس تقريبا ، ومع ذلك تقدم الرسول ﷺ إلى ميدان المعركة.

استراتيجية الموقع :

نزل النبي ﷺ الشعب من أحد ، وهو جبل على بعد ثلاثة كيلو مترات من المدينة ، وجعل الجبل في ظهره وظهر قواته حاميا لهم ووجههم إلى المدينة، ثم قال ﷺ لا يقاتل أحد منكم حتى نأمره بذلك ، ثم وضع الرماة في أماكنهم مؤمرا عليهم " عبد الله ابن جبير " وعددهم خمسون رام وقال لهم مهمتكم دفع الخيل عنا بالنبل ، فلا يأتونا من خلفنا سواء كانت لنا أو علينا ، وبذلك طلب منهم أن يلزموا أماكنهم ولا يفارقوها ولو رأو الطير تتخطف العسكر .

استعد الرسول ﷺ بقواته حتى الشباب رغبوا دخول المعركة مثل " سمرة بن جندب ، ورافع بن حديج " وهما ابنا خمسة عشر عاما وسمح الرسول ﷺ " لسمرة " بعد تجربة . المهم التقى الجمعان ، وحفزت هند النسوة ، وحمى وطيس المعركة وانجلى الموقف عن نصر مؤزر للمسلمين في أول الأمر ، وما أن وضحت معالم المعركة حتى ترك الرماه أماكنهم مرددين الغنيمة الغنيمة فذكرهم أميرهم بوصية الرسول ﷺ لهم لكنهم لم يسمعو ، وعندئذ تمكن " خالد بن الوليد " من أن يطوق جيش المسلمين من الخلف محتلا مكان الرماة ويرمي المسلمين ، وبالتالي دارت الدائرة على المسلمين ، لأنهم لم يسمعوا كلام النبي ﷺ ، وقتل من المسلمين رجال كثيرون منهم " حمزة بن عبد المطلب " الذي قتله " وحشي " غلام جبير بن مطعم ، وقد مثلت " هند زوج أبي سفيان " بجسده فبقرت بطنه وأخرجت كبده وأخذت منه قطعة لاكتها بأسنانها . وقد جرح الرسول ﷺ وكسرت رباعيته في هذه الغزوة ، ورغم ذلك صلى بالناس جالسا .

التأثير المعنوي :

بدأ التأثير بعودة المنافقين إلى المدينة تاركين ميدان القتال ، ثم ازداد مداه حينما أشاع " ابن قميئة " أن الرسول قد قتل فى الحرب لكن المسلمين ، وجنـــرد الله قد دافعت عن النبى ﷺ دفاعا كبيرا ، وكان عدد المشركين ٣٠٠٠ ، مـــائتى فارس . بينما المسلمون ٧٠٠ فيهم خمسون فارسا .

وما أن انتهت المعركة حتى وقف " أبو سفيان " مزهوا بـــهذا النصـــر ، وقف على مرتفع وأخذ يقول : أفيكم محمد ؟ فلم يجيبوه . فقال : أفيكم " ابن أبـــى قحافة ؟ فلم يجيبوه ؟ فقال أفيكم ابن الخطاب ؟ فلم يجيبوه . فقال أما هؤلاء فقـــد كفيتموهم : فلم يملك " عمر " نفسه أن قال : يا عدو الله ! إن الذين ذكرتهم أحيـاء ، وقد أبقى الله لك منهم ما يسوءك . ثم قال اعل هبل . فقال رســـول الله ﷺ ألا تجيبوه ؟ قالوا ما نقول ؟ قال : قولوا : " الله أعلى وأجل " ثم قال " أبو ســـفيان " لنا العزى ولا عزى لكم . قال : ألا تجيبوه . قالوا ما نقول ؟ قـــال : قولـــوا الله مولانا ولا مولى لكم . ثم قال " أبو سفيان " يوم بيوم بدر والحرب سجال . فقـــال "عمر " لا سواء قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار . وهكذا انتـــهت غـــزوة أحـــد بهزيمة المسلمين لكنها أعطت لنا بعض الدروس والعبر .

نذكر منها : أنها أول انهزام بعد عدة انتصارات حتى لا يغتر المنتصـــر بقوته ، ومنها يجب سماع أوامر وتوجيهات القائد ، وهو الرسول ﷺ الذى أمـــر الرماة بعدم النزول سواء كانت النتيجة للمسلمين أو عليهم للتحسب لأى ظروف . ومنها : يجب حب الآخرة على الدنيا وعدم الانغماس فى جمع الغنائم على حساب المصلحة العامة .

غزوة حمراء الأسد :

اغتر المنتصرون وتلاوم بعضهم على بعض لعدم إجهازهم على المسلمين وعندما علم ﷺ بذلك ، استنفر جنده الذين حضروا أحد لتعقب المشركين فى حمراء الأسد على بعد ثمانية أميال من المدينة ، ثم عاد المسلمون بعد ذلك إلى المدينة " وأبو سفيان " ورجاله إلى مكة . وتعد حمراء الأسد بمثابة المتنفس لإعادة الثقة للمسلمين .

غزوة الأحزاب :

الزمان عام ٥هـ ، والمكان على مقربة من المدينة . أما عن الأسباب فلما رأى اليهود انتصار المشركين ، أرادوا الاستفادة من هذا الموقف ، وبدأوا يؤلبون قريشا على المسلمين ، بل فكر اليهود أنفسهم فى قتل الرسول ﷺ بحجر ضخم وينتهى الأمر .

وقد كان المسلمون جاهزين لكل الاحتمالات ، وبعد أن اطمأن اليهود إلى موقف قريش ، دعوا غطفان من قيس عيلان للتحالف ضد المسلمين فأجيبوا لذلك ، واجتمع الأحزاب بقيادة " أبى سفيان " وكان عددهم حوالى عشرة آلاف .

ولما علم الرسول بهذه الاستعدادات حفر أمام المدينة من جهتها الشمالية خندقا بعد مشورة أصحابه لحمايتها ، وتجهز بقواته التى وصلت إلى ثلاثة آلاف مقاتل .

وقد نقض يهود بنى قريظة عهدهم مع الرسول ﷺ ، واشتد الموقف تأزما باستنفار " حيى بن أخطب " اليهود ضد المسلمين ، وحاول الرسول رأب الصدع مع بنى قريظة لكنهم ظلوا على عنادهم ، واشتد الحصار على المسلمين ، فحاول الرسول ﷺ أن يصالح رؤساء غطفان على (ثلث) ثمار المدينة وينصرفوا

حتى يؤثر فى عضد قريش بذلك ، وما أن جاء " نعيم بن مسعود الغطفانى " معلنا إسلامه حتى قال له الرسول ﷺ بعد أن عرض خدماته على المسلمين ، قال له : خذل عنا ما استطعت فإن الحرب خدعة ، فأوقع بين بنى قريظة وقريشا .

ومع اشتداد الحصار بدأت بعض المبارزات وقتل " على عمرو بن ود " الذى حاول اقتحام الخندق . وطال الانتظار ، واشتد البرد ، وثارت الرياح فاقتلعت خيام الأعداء ، وانجلى الموقف عن رحيل قريش فهزم الله الأحزاب .

وبهذا النصر المعنوى ازدادت ثقة المسلمين فى نصر الله وعزموا على تعقب اليهود تأديبا لهم على مواقفهم الخبيثة .

غزوة بنى قريظة عام ٥ هـ:

بعد عودة المسلمين من الخندق أمرهم الرسول ﷺ ألا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة ، لما كان لها من مواقف سيئة ضد المسلمين ، ولنقضهم العهد دائما . وقد حاصرهم الرسول ﷺ خمسا وعشرين يوما ، وأجهدهم الحصار فطلبوا من الأوس والخزرج التدخل لإنهاء المشكلة ، وبالفعل حكم فى أمرهم " سعد بن معاذ " وأفتى بقتل الرجال ، وتقسيم الغنائم وسب النساء والأطفال .

صلح الحديبية :

وفى العام السادس من الهجرة النبوية الشريفة صالح الرسول ﷺ قريشا الصلح الذى عرف بالحديبية ، ورغم بنوده المجحفة إلا أنه كان نصرا سياسيا ومعنويا مؤزرا للمسلمين ، اتضحت ثماره فيما بعد .

غزوة خيبر عام ٧هـ :

بعد عودة الرسول من الحديبية بـ ٢٠ يوما ، حاصر الرسولﷺ خيبر وأهلها ، ثم بدأ القتال واشتد الحصار ، وسقطت المناطق ، وعندئذ طلب يهود خيبر الصلح مقابل ترك مالهم ، وكاد الرسول يجبهم . فقالوا نحن أعلم بالأرض منكم ، دعونا نثمرها لكم ، فأعطاهم إياها على شطر أى مناصفة ما يخرج منها .

ولما علمت فدك بذلك صالحوه على مثل ما صولح عليه من خيبر ، وسارت تيماء ويهودها على دربهم ، وبذلك انكسرت شوكة اليهود فى المدينة .

غزوة مؤتة :

بعد أن انتهى الرسول من اليهود ، تطلع إلى خارج الجزيرة ، فأرسل جيشا بقيادة " الحارث بن عمير " إلى الغساسنة على تخوم الشام ، لكن " شرحبيل ابن عمرو الغسانى قتله ، عندئذ جهز النبىﷺ الجند وعليهم " زيد بن حارثة " فى ثلاثة آلاف من رجاله ، وقد لقيته جيوش " هرقل " إمبراطور الروم عند (مؤتة) وهى قرية من قرى البلقاء فى بلاد الشام ، وحمى وطيس المعركة واستشهد " زيد " ، فحمل الراية من بعده " جعفر " ، ومن بعده كان " عبد الله بن رواحة " ، ولما استشهد ثلاثتهم حمل الراية " خالد بن الوليد " الذى تمكن من العودة بالقوات عودة المنتصر .

فتح مكة ٨هـ :

كان بعد ذلك فتح مكة الفتح المبين ، وذلك عندما نقض أهلها الصلح السابق مع الرسولﷺ ، واعتدوا على خزاعة حليفة الرسولﷺ بمؤازرتهم "

لبكر " ، وما أن طلب أهل خزاعة النجدة حتى استجاب لهم الرسول ، وأخذ جنده الذين بلغوا عشرة آلاف ، وتقدم بهم إلى مكة فاتحا إياها مرددا قول الحق تبارك وتعالى:" **وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا**" الإسراء (٨١)

وعندئذ عم السرور والفرح وكثر اتباع المسلمين ، يالها من عظمة لا تدانيها عظمة ، يالها من قصة مروعة منذ أن خرج المسلمون حتى عادوا إلى مكة ، خرجوا منهزمين ، وعادوا منتصرين ، خرجوا قليلي العدد ، وعادوا بأعداد غفيرة ، حقا أنه نصر الله يؤتيه من يشاء .

غزوة تبوك:

وفى العام التاسع للهجرة بلغ الرسول ﷺ تجمع الروم على حدود فلسطين ، لقتال المسلمين ، فدعا المسلمين للجهاد ، وخرج على رأس جيشه فلما وصل (تبوك) أقام بها أياما صالح أهلها ، وجاءت إليه الوفود من آيلة وغيرها فصالحوه على دفع الجزية . ثم بعث "خالد بن الوليد" إلى دومة الجندل ، فأسر صاحبها واستولى عليها ، عاد بعد ذلك الرسول ﷺ إلى المدينة بعد أن غزا آخر غزواته .

حجة الوداع :

فى العام العاشر من الهجرة خرج الرسول ﷺ فى أكثر من مائة ألف من المسلمين حاجا بهم ، وعند جبل عرفات ألقى خطبته الشهيرة التى تعد دستور العمل الإسلامى ، كما تم نزول القرآن بالآية الكريمة " **اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا** " المائدة (٣)

ولم يمض بعد هذه الحجة ثلاثة أشهر حتى مرض الرسول بالحمى ، وفاضت روحه الطاهرة فى الثانى عشر من ربيع الأول عام ١١هـ ، وذلك يوم الاثنين ، وهو فى الثالثة والستين من عمره . بعد أن بلغ رسالة ربه .

وهكذا رأينا كيف بدأت قصة الدعوة ، وما آلت إليه ، وما بذله الرسول ﷺ من جهد وافر فى سبيل ذلك ، حقا لقد كان الرسول شمسا أضاءت الدنيا بتعاليمها ، كان كالطور الشامخ تحمل كثيرا من ألوان الأذى ليضيئ الطريق أمام التابعين ، وأخيرا توارى الرسول ﷺ ، ولكنه ترك كوكبة من الصحابة قاموا بالأمر من بعده أحسن ما يكون القيام ، معتمدين فى أعمالهم على تعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

* * * * *

